رشاد أبو شاور

رقصة ليلة الوداع

مختارات قصصية

تقديم: د. حسن حميد

الكتاب: رقصة ليلة الوداع (مختارات قصصية)

الكاتب : رشاد أبو شاور

تقديم: د. حسن حميد

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.com **http://www.apatop.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

أبو شاور ، رشاد

رقصة ليلة الوداع (مختارات قصصية)

/ رشاد أبو شاور – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولي: ٦– ٥٨٦– ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨

.. ص،.. سم.

أ – العنوان رقم الإيداع: ٨٦٠٦٠١

رقصة ليلة الوداع

مختارات قصصية





رشاد أبو شاور

د. حسن حميد

هاهي ذي الفرصة تقع بين يديَّ مثل تفاحة ذهبية ملأى بالألوان والطعوم والبريق والدهشة والأسرار، كي أكتب عن واحد من أفذاذ الكتابة القصصية في مدونة السرد الفلسطينية اسمه الحركي أبو الطيب واسمه الكامل رشاد أبو شاور، ذلك لأن الحركي والكامل يتداخلان إلى حد التماهي مثلما يتداخل الفدائي والسارد، وابن القواعد.. الترابي الخشن وابن القراطيس والفنون .. الوضاء الناعم في آن معاً.

أذكر أنني ذهبت إليه برفقة اثنين من الكتّاب الفلسطينيين، كانا سابقين عليَّ في التجربة (كتابةً)، والمعروفية (شهرةً) في أوساط المشهد الثقافي الفلسطيني بوصفهما كاتبي قصة قصيرة لهما انتماؤهما الفصائلي داخل م. ت. ف، هذان الكاتبان هما، الأول: أحمد سعيد نجم الذي عرفته عن قرب من خلال خدمة العلم التي عشنا دوراتها التدريبية الأولى معاً مع رهط من خريجي الجامعات والمثقفين الفلسطينيين، والثاني: أحمد السرساوي الذي عرفته صحفياً في مجلة الحرية الأسبوعية الفلسطينية بعدما جاء إليها قادماً من جريدة البعث السورية بعد تمرس ومهنية عمرها سنوات..

ذهبنا، ثلاثتنا إلى بيت رشاد أبو شاور في مخيم اليرموك، وكان الوقت مساء، وقد تهيبت اللقاء كثيراً، فرشاد أبو شاور آنذاك غول ثقافية

بكل ما تعنيه هذه الكلمة من حضور، وسطوة، وجمالية.. ذلك لأن ما من مطبوعة فلسطينية، أو مجلة، وما من كتاب فلسطيني يصدر هنا أو هناك.. إلا وكان رشاد أبو شاور حاضراً وبقوة أدبية تكاد أنفاسها الوطنية تخترم الأسطر والصفحات نشوراً وموجودية.. وقد كان المهبط الأخير لكل تلك المطبوعات المخيم. بعضها كان له الطابع السري، وبعضها الآخر كان له الطابع العلني.. لكنهما وبعد ساعة من الزمن تصبح كل فاصلة فيهما علانية العلن، فالمخيم كائن مكاني واجتماعي لا شيء فيه يتوارى.. حتى الأحزان..ولكم كنا نحن الأطفال، نضحك ملء رؤوسنا بعد أن تصبح الأمور والأسرار والأقوال علانية يعرفها حتى برغش المخيم، فقد كنا نأخذ الصحف والمجلات والمنشورات الفلسطينية تحت ثيابنا لصقاً على جلودنا، ممن هم أكبر منا في العمر والتجربة فننقلها إلى آخرين كي لا يتهم الكبار بأنهم ينقلون المنشورات والصحف والأدبيات الفلسطينية، أي كي لا يتهم أحد منهم بأنه منظم وله صفة ما في تنظيم فلسطيني ما أيضاً.. نضحك ملء رؤوسنا لأننا وبعد ساعة نرى ما كنا حريصين عليه سرانيةً لصقاً على جلودنا.. قد صار في دكاكين المخيم تشققه الأيدي الجافة وتصرّ به الحاجيات.. نضحك من ذلك الحرص الشديد الذي يبديه الكبار حين نأخذ منهم تلك المنشورات.. إذ لا شيء يملأ آذاننا، لحظتئذٍ، سوى كلمات مثل: إياك، انتبه، احرص..

أقول ذهبنا، نحن الثلاثة، إلى رشاد أبو شاور في المخيم، بعد أن تواعدنا.. وبعد أن تقيفنا، أو لعلي أنا الوحيد الذي تقيفت لأنني أجئ إلى مخيم اليرموك من مخيم جرمانا، وهو مخيم صغير، يشبه قرية صغيرة ملأى

بالبشر والحركة والأسئلة واللوبان.. بينما مخيم اليرموك يشبه مدينة مترامية الأطراف.. ولأن أبناء القرى يتقيفون استعداداً للذهاب إلى المدينة.. فإنني تقيفت.. لكن قيافتي لم تستر دقات قلبي الضاربة بقوة أكبر كلما اقتربنا من بيت رشاد أبو شاور.. أخذتنا أزقة المخيم الضيقة إليها، فرحنا نمشي وراء بعضنا، والأحاديث تلفنا.. أحمد سعيد نجم يقول أنا متأكد أنه هنا، لقد رأيته البارحة، وهو في العادة، لا يغادر البيت مساء، إنه في إجازة كي يرى أم الطيب والأولاد والأصدقاء. فيهمهم أحمد السرساوي ساخراً كعادته: ومن يستطيع ضبط حركات الفلسطيني، الملائكة رضوان الله عليهم أجمعين لا يستطيعون ذلك. فأقول مشاركاً في الحديث: فعلاً، يكاد الفلسطيني يكون معادلة رياضية أو كيميائية. فيضحك الاثنان ويهزان رأسيهما.. كأنهما يقولان: الفلسطيني أكثر من ذلك. ونصل إلى البيت، باب اكتظ طوله الخشبي بكتابات طفلية ورسوم لا تخلو من المفارقات والدهشة.. ضغط نجم جرس الباب، وتراجع نحونا خطوة إلى الوراء، وانتظرنا أحداً ما يفتح الباب. لكن لا أحد يطل. قال السرساوي سائلاً: هل ضغطت الجرس؟ فقال نجم: نعم. قال: وهل يترك أولاد المخيم جرساً قابلاً للرنين.. لقد أخذوا رنينه ومن مرة واحدة، وتقدم نحو الباب وراح يقرعه بقوة.. لحظات وأطل رجل طفح الوجه، طويل الشعر، جبهته الوسيعة تشع مثل قمر، له صدر عريض مثل جذع سنديانه، وحاجبان كثيفان، وعينان تقدحان شرراً، إنه رشاد أبو شاور الذي أعرفه في الصورة.. وشع وجهه، حين رآنا، وأضاء بابتسامته المشرقة.. وأخذنا بيده الممدودة نحونا.. إلى صدره واحداً واحداً.. في عناق لم تفارقني حرارته حتى يومي

هذا.. إنه رجل يُسلّم عليك بكامل مودته.. وجلسنا حول مجلسه، قرب طبق فوقه صحون فيها زيتون، وزيت، وزعتر، ولبن، وإلى جوارها إبريق الشاي، وأرغفة الخبز.. يا إلهي كم هي أنيسة هذه الجلسة! وكم أحلم بمثلها الآن!. وما إن أخذنا المكان إليه حتى دعانا رشاد أبو شاور إلى الطعام.. فشكرناه، لكنه أصر، فشاركناه الطعام، ونادى أم الطيب، فأطلت علينا مثل زغرودة، يا للنساء الفلسطينيات.. ما أجمل طلتهن، وقال لها: نطلب منك يا سيدتي، وباسم الثقافة الفلسطينية، المزيد من الكاسات، والنعناع، والخبز.. فقالت: حاضر. بدت ابتسامة أم الطيب الوسيعة كأنها ابتسامة منقولة بمهارة وحذق عن ابتسامة أبي الطيب، أو لكأن ابتسامته الوسيعة هي المنقولة بمهارة وحذق عن ابتسامة أم الطيب المضيئة.. بلى الأزواج يتشابهون أكثر من الإخوة أحياناً. ورحنا نتبادل الحديث.. حدثنا الفدائي رشاد أبو شاور عن القواعد الفدائية، عن صباحات الفدائيين ومساءاتهم، عن مشاغلهم وهواجسهم ومخاوفهم.. وعزلتهم كالوحوش في الأودية والمغر والكهوف ورؤوس الجبال من أجل العزيزة فلسطين.. عن أحلامهم البعيدة والدانية، عن استحضارهم الحزين والموجع لأسرهم، وأولادهم، وأيام الدراسة، عن فرحهم بالرسائل، عن أفراحهم الصغيرة عامة، عن الفقد.. هذا الهجس الرهيب الذي يشيع في جميع القواعد الفدائية.. الفقد الذي يأخذهم واحداً واحداً إلى الأسر والغياب مرة، وإلى الشهادة مرات ومرات، ويحدثنا أيضاً عن قراءاتهم والكتب التي تدور بين أيديهم مداورةً، وعن الدورات التعليمية والتثقيفية التي يعيشونها يومياً في المساءات، وعن هوس الفدائيين بتعلم اللغات الأجنبية عن طريق الطلبة

الفلسطينيين القادمين إليهم من البلاد الأجنبية.. حدثنا عن الوحدة الإنسانية التي يقيمها السوريون، والعراقيون، والتوانسة، والأردنيون، والمغاربة، والجزائريون، والأكراد، والأرمن، والتركمان، واليابانيون.. داخل القواعد الفدائية.. عن زيارة الوفود الأجنبية.. والنساء السلافيات الطوال مثل عيدان القصب.. والمقارنات الضاحكة من بين شعر بعض الفدائيين أصحاب الشعر الأجعد وسمرتهم الداكنة.. وشعر هؤلاء النساء الشقراوات وبياضهن المشرق كالصباحات.. ثم يحدثنا رشاد أبو شاور الأديب عن الكتب، والقصص، والروايات، والترجمة، ويسألنا عن قراءاتنا الأخيرة، وهل وصل لأيدينا كتاب فلان وفلان وفلانة..

ثم يميل بنا نحو الحوارات الساخنة على صفحات مجلات: الهدف، وفلسطين الثورة، والقاعدة، وإلى الأمام، والحرية.. وما تصدره دور النشر اللبنانية من كتب مثل دار العودة، وابن رشد، والفارابي، والآداب، وابن خلدون،.. عندئذٍ نحار بهذا الاجتماع المدهش للفدائي والأديب في شخص رشاد أبو شاور..

الآن، أعترف أنني من النادر أن ألتقي بأحد يتحدث بكامل حواسه، وبكامل حرارته وتوهجه مثل رشاد أبو شاور، رجل يشبه الفلاحين، والعمال، والأمهات، والنهارات.. بوضوحه، وجديته، وحرارته، وعاطفته.. فهو صاحب الأسطر المشفوعة بابتسامته البيضاء، وصاحب العينين اللتين تقبضان عليك وأنت في تمام الرضا والتسليم، وصاحب المقدرة الحكائية المحتشدة بالدهشة والخيال. سحرني رشاد أبو شاور منذ اللقاء الأول.. ولا سيما أن الممالحة كانت زيتوناً وزعتراً وخبزاً وشاياً بالنعناع..

وانتبه رشاد أبو شاور فجأة، وكأنه استشعر خطراً، وقال: أنا مشتاق للحكي.. من زمان ما حكيت، مشتاق لكم ولرؤيتكم، لهذا سامحوني، وهاتوا أخبروني ما لديكم.. ومن هذا الشاب الأسمراني.. وأشار إليَّ. قال السرساوي: أنت تعرف نحن بشوق إليك دائماً. نحاول الكتابة. أنا أكتب في الحرية، ونجم يكتب في الهدف. نقرأ ونحزن.. وآخر الليل نحلم مثل باقي خلق الله. وحين صمت، قال نجم وهو يشير إليَّ: هذا صديق العسكرية، حسن حميد من مخيم جرمانا، لاجئ مثلنا طبعاً (ويضحك نجم ضحكته الموسيقية) هو من الجليل، من قرية بجانب جسر بنات يعقوب.. يقول إن أهله عملوا سقائين للأرض، يحملون الماء من نهر الأردن إلى الأراضي البعيدة، وقد أدركته حرفة الأدب، هو طالب جامعة، يدرس الفلسفة، ويكتب القصة القصيرة.

كان رشاد أبو شاور يستمع ويهز رأسه ويبتسم، وكنت غارقاً في خجلي، فأي فضيحة يسوقها نجم حين يقول له: إنني أكتب القصة القصيرة.. ونحن في عرين القاص الذي تجاوره مكتبة خشبية عالية الأرفف.. تحتشد فيها الكتب مثلما كنا نحتشد صغاراً في مدارس وكالة الغوث.. كل أربعة أو خمسة طلاب في مقعد واحد.. وامتدّ بنا الوقت، وبدأ الخجل يتبدد رويداً رويداً لتحل في محله جسارة أوجدتها مودة رشاد أبو شاور.. وكان أن وصلت بي الجسارة تحت إلحاح الصديقين (نجم، والسرساوي) وتشجيع رشاد أبو شاور.. إلى أن أخرجت قصة ورحت أقرؤها على مسامع رشاد أبو شاور، يا للجرأة العجيبة، ويا للجسارة العجيبة أيضاً.. لكنه هو الأستاذ والمعلم يطلب مني ذلك، وهو الذي يحملني على

حصان شجاعتي كي أقرأ القصة.. وقرأت قصة من صفحتين تتحدث عن لحظة حب عاصفة، فيها جراح، وحزن، وفقد،وألم، وأذى روحي.. وحين انتهيت قال رشاد أبو شاور بعد أن نظر ملياً إلى وجهي الذي تحول كله إلى عيون: عال واللهِ ممتاز. هذه موهبة أدبية حقيقية. والله أنني فرح بك، ولكن يا عمي حسن أما كان لك أن تشير إلى أن هذه القصة حدثت في المخيم، أقصد أن تعلقها بالمخيم، أي أن تجعل لها نسباً فلسطينياً، يعني أما كان بمقدورك أن تجعل هذه البنت مرجانة.. فلسطينية.. ألا تتسامح معنا.. على الأقل (منشان) عمك رشاد! وضحك، وضحكنا.. لحظتئذٍ.. شعرت كم الوطنية، والخصوصية، والفطرة هي من الدروس الذهبية لأي أديب صاحب قضية.. فرشاد أبو شاور يريد لأنفاسنا، وخطانا، ونظراتنا، وعاداتنا، وكتابتنا.. أن تكون علوقاً بفلسطين العزيزة، أن ندور حول فلسطين مثلما يدور الفراش حول الضوء.. أن تكون هي المدار ولا مدار لنا سواها. وخرجنا من بيته متأخرين، بعد أن تواعدنا على اللقاء الصباحي لأمر ضروري، وفي الباب قال لي غامزاً: يا عم حسن، (خلي) مرجانة فلسطينية (منشاني). فقلت بحياء شديد: حاضر. وحين عدنا في الصباح نحن الثلاثة، وجدنا فراش رشاد أبو شاور ممدوداً إلى جوار طبق الطعام المسائي وقد غطّته صفحات الجريدة، فما كان منه إلا أن رفع الغطاء الورقي، ودعانا كي نأكل من الزيتون والزعتر والزيت.. وكي نشرب الشاي بالنعناع.. بلى، رشاد أبو شاور.. هو هو في الصباح والمساء، رجل ثبت لا يتغير إلا من أجل تصليب الوطنية..

منذ ذلك اللقاء، ظللت ورشاد أبو شاور ملازمة المريد للشيخ. أتابع أخباره، وأتعلم من كتابته، وأنهل من وطنيته ومحبته وغيرته تجاه التاريخ، والتراث، والحاضر، والمستقبل، وكان كيفما تطلعت إليه يبدو مثل الراية محلقاً في هواء رهوٍ له ظلّ طويل مديد.

ذلك كان أول لقاء لي به، أما كتاباته الأولى التي قرأتها فكانت منجمات تأخذ بها تلك المجلة أو تلك الصحيفة، في المجلات السورية واللبنانية ومجلات المقاومة الفلسطينية إلى أن وقعت بين يدي مجموعته القصصية التي عنوانها (بيت أخضر ذو سقف قرميدي)، فرحت أقرأ فيها حتى حفظتها غيباً.. ومنها انطلقت إلى مجموعاته القصصية الأخرى التي نشرها رشاد أبو شاور ومنها (مهر البراري) التي أعدّها من أهم المجموعات القصصية الفلسطينية معنى ومبنى ومغنى ومن أكثرها تأسيساً لنص قصصي فلسطيني له ذروتان: ذروة وطنية وذروة فنية.. لقد حلق رشاد أبو شاور في مجموعته (مهر البراري) إلى الحد الذي أثار حفيظة أدباء وكتاب كثر فلسطينيين وعرباً، ذلك لأن هذه المجموعة شكلت لهم تحدياً فنياً، ومعنى نضالياً فحواه كيف للمادة الإيديولوجية أن تتحول إلى فن راق.. رشاد أبو شاور قال للجميع عودوا إلى الطبيعة فهي النبع الذي يجعل من الأفكار الثقيلة مادة مستساغة من قبل الجميع، ثم عودوا إلى الفن الحقيقي واجدلوا منه إطاراً مناسباً، عندئذٍ لن يُقرأ النص بوصفه إيديولوجيا.. وإنما سيقرأ بوصفه موسيقى ورسماً ونحتاً وتصويراً وجمالاً لا يضاهى أو ينادد.

في مجموعته (مهر البراري) تجلت قدرات رشاد أبو شاور، فبدا مثل بستاني عتيق حذق مهنة البستنة فأخذ إلى نصه القصصي ألواناً، وأرواحاً، وجماليات، ومهارات، وتقنيات، وغذّاها بالحكائية التي حباه الله بها.. فتجلّى نصه كالضوء وأبدى، لقد أخذ من يوسف إدريس شيئاً، ومن العم تشيخوف شيئاً، ومن زكريا تامر شيئاً، ومن توفيق يوسف عواد شيئاً أخر.. ثم جعل من كل هذا (الأخذ) عجينة.. راحت أصابعه، وروحه، وموهبته.. تلعب بها لعباً.. ومن هذه العجينة أبدع رشاد أبو شاور نصاً قصصياً لا يشبه النصوص أو التجارب التي قرأها.. لذلك فإن لنص رشاد أبو شاور خاصية أو دمغة متفردة، إنه نص رشاد أبو شاور وكفى. إنه نص مشغول على نول الفطرة، والعفوية، والبساطة، والمفهومية، والموهبة، والوطنية الراعبة جمالياً.. هنا وقبل أن استطرد في تعداد مزايا نص رشاد أبو شاور.. سيقول القارئ الكريم ومن غير هذه المفردات يشكل النص الأدبي؟ والحق، أن المرء يحار بموهبة رشاد أبو شاور وهو ابن العشرينيات الذي لم يحقق صولات وجولات خارقة في التحصيل الأكاديمي.. يحار كيف قيض لهذه الموهبة أن تمتلك هذه الثقافة العارفة بأعماق الذات البشرية ومكنوناتها، ومعرفة النوازع والهواجس التي تعيشها حيناً، والتي تلفّها حيناً آخر... هذا ناهيك عن نظرته المبكرة إلى أن الفدائي (الذي رسم الشارعُ العربي له صورة السوبرمان) هو بشر من لحم ودم وحواس ومشاعر، إنه (في نص رشاد أبو شاور) يكره ويحب، ويعشق، فينجح ويخفق في آن، وأنه حاد شرس وطري لين كالنبات في آن معاً، إنه روح تذوب في مواضع الذوبان، وروح مشتعلة ناراً في مواضع الحماسة

والإقدام.. بينما كانت نصوص الآخرين تبدي الفدائي على شكل صورة واحدة هي الصورة التي رسمها الشارع العربي للفدائي/البطل/ السوبرمان.

في مجموعته (مهر البراري) قصص فيها قوة بناء تتمثل في معمارية حكائية نادرة المثال، وبساطة تشبه بساطة الماء وتعقيداته في آن، وجمالية مشتقة من فنون المسرح، والسينما، والموسيقى، والتصوير البهار، يضاف إلى ذلك تلك التقابليات المدهشة ما بين الثنائيات التي تموج مرجحة داخل النصوص وهي تبدي التناقضات.. وليس مثل التناقضات شيء يبدي تعددية الوجوه، والنفوس، والأصوات.. فالثنائيات في نصوص رشاد أبو شاور أشبه بالمرايا المتقابلة التي تبدي الجمال والقبح، والعلني والسراني، واليابس والطري، والناعم والخشن، والترابي والوردي، والجاف والخضيل كما أنها تبدي التبادلية الموجعة ما بين الحضور والغياب، والحزن والفرح، والموت والحياة، والمكث والرحيل، والوطن والمنفى،.. وعدا عن كل هذا فإن رشاد أبو شاور تفطن وهو في العشرينيات من عمره إلى أن النص القصصي ليس حكاية، أو اجتماع أخبار وحسب، وإنما هو كتاب معرفة وثقافة، لذلك فإن أهم ما تمتاز به نصوصه القصصية أنها نصوص مثقلة بالمعرفة وناطقة بقوة الثقافة.. فالقارئ الذي يهمُّ بعبور نصوص رشاد أبو شاور القصصية.. هو غيره القارئ الذي ينفذ منها.. في النقطة الأولى أي قبل البدء بالقراءة هو كائن، وبعد عبوره للنصوص ومعرفتها وإدراك معانيها هو كائن آخر.. بعدما أضافت النصوص إليه الكثير أو غيّرت فيه الكثير أيضاً. لهذا أقول بصراحة ووضوح، إن مجموعته القصصية (مهر البراري) تشكل المثلث الأهم فنياً في مدونة القصة القصيرة الفلسطينية الحديثة،

وأعني بذلك: غسان كنفاني، وسميرة عزام، ورشاد أبو شاور. وأنا هنا أقفز عن مجموعة أستاذنا الكبير جبرا إبراهيم جبرا (عرق وقصص أخرى) التي شكلت نقلة نوعية في تاريخ القصة القصيرة العربية على الرغم من حظها النكد الذي غُمر بالفيض الروائي الذي انشغل به المعلم جبرا إبراهيم جبرا.

وأعود إلى رشاد أبو شاور، فأقول إن له سيرتين، الأولى: سيرة حياة فيها الكثير من الشظف، والقسوة، والتنقل، والترحال، والعزلة، والثانية: سيرة كتابية. فيها الكثير من الحفر المعرفي. وكلا السيرتين تحتاج إلى الكشف عنهما لما فيهما من معان ضافيات.

رشاد أبو شاور، في سيرته الأولى، قروي من قرية (ذكرين) الواقعة إلى الغرب من مدينة الخليل الفلسطينية، أهله أهل فلاحة وزراعة، وأهل انتظار للمواسم إن أقبلت الحياة، وإلا فالحياة أمنيات. والده أحد أبناء القرية المثقفين من دون أن يعرف القراءة والكتابة، انتسب إلى الأفكار التقدمية الآتية من البلاد (الموسكوفية)، فجعلها نبراساً له وبوصلة موجهة لخطاه. وعى ما يراد لفلسطين من احتلال واغتصاب، وما يراد لأهلها من تهجير وأذى، وما يراد للوطن العربي من تفكك وعزلة.. لذلك نشط في الدفاع عن الأفكار البلشفية وتحمل الأذيات التي لاحقته بسببها رشاد أبو شاور ولد بين ما يمكن تسميته مجازاً بالمنشورات والبيانات والصحف والقولات الثقافية، والرميات الفكرية، والكتب الثقيلة التي تحتوي على أفكار ماركس ولينين.. وغوركي وأنجلز.. وفي طفولته وعى حراك والده ونشاطه، وغيابه عن البيت،بعدما غابت أمه في حادثة مفجعة فقد التهمها

دولاب الطاحون فشق جسدها نصفين، ولم يكن لها من جملة تقولها قبل رحيلها الأخير سوى: استروني، انكشف لحمي!.. ولم تمض سنوات فقط حتى عصفت الظروف بالوطن الفلسطيني.. فغادر رشاد أبو شاور بلدته (ذكرين) متوجهاً نحو الخليل، ومنها إلى أريحا حيث أقيم هناك على عجل مخيم للاجئين الفلسطينيين، وبذلك صار عنوان الأسرة مخيم (عقبة جبر/النويعمة/أريحا)، وهناك في أريحا راح الفتى رشاد أبو شاور يقرأ في التراث الإنساني والحضاري لأريحا، يقرأ عن مذبحتها الشهيرة بدمويتها ووحشيتها، وعن التاريخ المسيحي للرسل الذين كانوا يتوارون عن أعين الطغاة أنذاك في المغر والكهوف والأودية.. يقرأ عن سادوم وعامورة، عن اللعنة الإلهية الحارقة التي أصابت المنطقة.. فأشعلت هواءها بالحرارة العالية، وعن البحر الميت وتفرده بالملوحة الطاغية، والخرافات، والأساطير، والميثولوجيا التي تدور حوله، وحول قوافل الملح، والملاحات، والنساء العواقر.. في أريحا يشعر رشاد أبو شاور أنه بات في قلب التاريخ الذي يطل على الحاضر والمستقبل معاً، ومن أريحا كانت رحلاته نحو القدس مع والده، وأعمامه، ومع أساتذته وأترابه في المدارس.. وهناك راح يقرأ تاريخ القدس، ويتعرف إلى غزاتها وسافكي دم أهلها وهادمي أسوارها ومساجدها وكنائسها.. هناك في القدس مشى في درب الآلام الذي مشاه سيدنا المسيح عليه السلام، وجال في المسجد الأقصى وقبة الصخرة واقتعد الظلال.. راقب طيور الحمام الآمنة فطار معها عبر تحليقات لا أبدع منها ولا أجمل، وحط معها فوق أسوار القدس وأبراجها.. وماشاها في الساحات الوسيعات، ورأى أيدي الناس تقذف نحوها البذور فتتطاير

حفنات البذور فوق البلاط مثل حبات الخرز، ويمر بعقبات القدس وحاراتها فيرى البيوت المتداخلة المعرشة علواً وامتداداً مثل الدوالي، يرى الأبواب النداهة اللامعة.. وحجارة البيوت الوردية، فيواقفها كمن يواقف المرايا، ويشرب من شراب الخروب كمن يشرب كاسات الندى. ويرتحل مع والده إلى دمشق ليعيش فيها فترة تعد من أخصب فترات حياته، تلك الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٦٥ حيث كانت الشام تعيش ربيع الوحدة مع مصر، ومرارة الانفصال في الوقت نفسه، ومن ثم نشور الحياة الجديدة بدءاً من عام ١٩٦٣.

يعود رشاد أبو شاور ووالده إلى مخيم النويعمة في أريحا فيعيش فيه حتى عام ١٩٦٧، وإثر عدوان ١٩٦٧ يطرد مع والده إلى الأردن.. وهناك يعيش في مخيم جديد هو مخيم النصر، وفيه راحت تتزاحم فيه صور أمكنة ثلاثة هي .. صور قرية رشاد أبو شاور الأولى (ذكرين)، وصور (القدس)، وصور (أريحا) ومخيم النويعمة/ عقبة جبر.. لهذا لا يُسأل رشاد أبو شاور عن اختناقات روحه وغصاتها الوطنية..

ومن الأردن يغادر الأب (محمود أبو شاور) وابنه رشاد أبو شاور إلى دمشق مرة ثانية كصديقين الأب شيوعي، والابن ناصري.. وكلاهما يغرق في أفكاره إلى حد التعصب. وفي دمشق يفتن رشاد بأحياء المدينة القديمة: القيمرية، ومدحت باشا، وقصر العظم، والدرويشة، والنوفرة، والعمارة، ومئذنة الشحم، والميدان، فتبدو دمشق كأنها توءم القدس، أو لكأنهما معاً تفاحة مشطورة إلى نصفين: نصف مقدسي.. وآخر شامي..

وفي دمشق يحدد رشاد أبو شاور موقفه الفكري.. فيخالف والده في توجهاته ونقاشاته وغاياته.. عندما يتبنى الفكر الناصري اتجاهاً وموقفاً.. ذلك لأنه وعى مبكراً أن قضية فلسطين ليست قضية الفلسطينيين وحدهم، وإنما هي قضية العرب، وأن في الوحدة العربية عزة ما بعدها عزة، وأن القومية العربية أكثر من تاريخ مشترك، وأكثر من لغة واحدة، وأكثر من تراث مترامي الأطراف.

ومن فوق مقاعد الدراسة يمضي رشاد أبو شاور إلى العمل الفلسطيني في مجال الإعلام والتعبئة، فراح يكتب ما تعارفنا على تسميته بـ أدبيات الثورة الأولى التي أُضيفت إلى الميثاق الفلسطيني، ثم راح يكتب قصصه الأولى وينشرها في المجلتين الأهم في سورية (المعرفة) و(الموقف الأدبي) مجاورةً لقصص: سعيد حوارنية، وهاني الراهب، وزكريا تامر، ونصر الدين البحرة، وياسين رفاعية، وغادة السمان، وعبد الله عبد، وحسيب كيالي، وكوليت خوري، ووليد إخلاصي.. وبذلك حقق نقلة نوعية غير منتظرة في المجال الأدبي ذلك لأن قصصه لاقت قبولاً وترحيباً مهمين في الأوساط الأدبية. ومن بعد، انتقل إلى نقلة نوعية أخرى حين راح ينشر قصصه في مجلة (الآداب) اللبنانية إلى جوار قصص الأدباء العرب الكبار يوسف إدريس، وسعيد الكفراوي، ويوسف الشاروني، وجمال الغيطاني، والطاهر وطار، والطيب صالح، وإسماعيل فهد إسماعيل، وغسان كنفاني، وسميرة عزام .. ومع حضور المجلات، والصحف الفلسطينية.. غدا رشاد أبو شاور حجر الزاوية في مجالي الإعلام والثقافة الفلسطينيين، كما بات واحداً من أهم الأسماء الأدبية الفاعلة في الاتحاد العام للكتاب

والصحفيين الفلسطينيين. ومع ذلك ظلَّ رشاد أبو شاور، شأنه شأن الشاعر الكبير خالد أبو خالد، الفدائي الذي يكتب ويجول في دوائر الإعلام والثقافة، والإعلامي والأديب المتواجد في القواعد الفدائية التي عدّها كلاهما الهواء الذي يتنفسانه.. ولعل قصص رشاد أبو شاور الأولى في مجموعاته الأولى (ذكرى الأيام الماضية ١٩٧٠) و(بيت أخضر ذو سقف قرميدي ١٩٧٤)، و(الأشجار تنمو على الدفاتر . ١٩٧٥).. و(مهر البراري).. اتخذت من القواعد الفدائية في لبنان بوصفها نقطة مكث ومعايشة وتصارع للأفكار والرؤى والأحلام مجالاً مكانياً لها، يضاف إليه المجال المكاني الآخر المتمثل ببيروت بوصفها رئة مدينية غير قارة من جهة، وبوصفها حلماً مشتهى لا بدّ من مراودته أو الاقتراب منه بين حين وآخر من جهة ثانية. لقد كانت الحال الفدائية بالنسبة لـ رشاد أبو شاور، وغيره من المثقفين الفلسطينيين الذين عملوا في مجالي الإعلام والثقافة، منجماً بشرياً متعدد الضفاف، واجتماعاً محتشداً بالحيوات، والحكايات، والأسرار، والرؤى، والجدل، والأحلام، والمتغيرات.. فالقواعد الفدائية، وعبر اجتماع الفدائيين الآتين من أحياز مكانية وجغرافية متعددة، منها القريبة ومنها البعيدة، والآتين من قوميات، وطوائف، ومذاهب، وطبقات اجتماعية، وثقافات إنسانية شديدة التنوع والثراء.. منحت مجتمع الفدائيين الكثير من الخصوبة والتعددية، والمناددة، والحيوية، والتجدد، والمضايفة المستمرة.. بقولة أخرى إن مجتمع الفدائيين الذي هو مقلع اجتماعي نحو الغياب.. في حالات ثلاث هي: الاستشهاد، أو الأسر، أو الفقد.. كان عالماً يحرص على موجوديته الاجتماعية كي لا تلتهمه غولُ الغياب.. لذلك

فـإن الحكايـات، والأخبـار، والهجـس بـالوطن، والرسـائل، والأشـواق، والتشـوفات، وحـالات الـوداع المسـتمرة فـي الحضـور،.. وشـيوع رائحـة الموت والحديث عنه.. كل ذلك جعل الفدائيين يقاومون هاجس الفقد، والرحيل، والغياب.. بقص الحكايات تماماً مثلما فعلت (شهرزاد) في (ألف ليلة وليلة).. لذلك ما كان من أحد يرث الفدائي الذي يغيب (استشهاداً، أو أسـراً، أو فقـداً) سـوى حكاياتـه، فهـي التـي يتناقلهـا رفاقـه، وهـي التـي ستصير قصصاً في أوراق رشاد أبو شاور ورفاقه أيضاً. وهنا لا بدّ من القول إن رشاد أبو شاور نفسه يجمع إلى يومنا الراهن، أطال الله في عمره، شأنه شأن الشاعر خالد أبو خالد، بين شخصيتين اثنتين، هما: الفدائي والأديب، أحياناً تطغى إحدى الشخصيتين على الأخرى.. لكنها لا تمحوها.. فرشاد أبو شاور، ومثله أبو خالد، ليس كائناً مدنياً صرفاً لأن الروح الفدائية.. روح الرضـا بالقليـل القليـل، والانتظـار الحُـرّ للمجهـول الآتـي لا ريـب، وروح المفاجأة، وهاجس التنقل، والنفور من المكث في مكان معلوم، والسرانية في الحركة.. والقلق، والخوف، والأحلام.. كلّها تحيل الشخصية المدينية إلى كائن مشطور إلى نصفين؛ نصف يمثله الجسد في حضوره وحراكه، ونصف يمثله الحلم في توثبه واشتعاله الدائمين. إن رشاد أبو شاور المديني اليوم غير حافل بالتمظهرات المدينية ليس لأن المال لا يجري بين يديه وحسب، وإنما لأن حياة الفدائي روّت روحه بأسرارها الثقال.

هذه هي السيرة الأولى لـ رشاد أبو شاور، سيرة الحياة التي عرف فيها معاني الألم والغُصات، والعَوَز، والظلم، واليتم، والعزلة، والصبر، والعزيمة

على التحصيل، والاجتهاد، والعمل وفق طريقة الخطأ والصواب، فإن أخطأ رجع إلى نقطة الانطلاق، وإن نجح مضى إلى النقطة الأبعد.

والسيرة الثانية لرشاد أبو شاور هي سيرة كتابية، تلخصها رحلة البحث عن الكتاب والمعرفة.. فقد بدا ومنذ عتبات العشرين من عمره يطارد الكتاب ويبحث عنه تماماً مثلما طارد جلجامش عشبة الخلود وبحث عنها، فقد عدّ، وفي سن مبكرة، أن الاستحواذ على الكتاب هو استحواذ على العالم، والعمل على تنمية العقل وتثقيف النفس هما من أرفع الأعمال التي يقوم بها الإنسان تكريماً لذاته، ومجتمعه، وتاريخه. وقد قرَّ في واعيته أن امتلاك المعرفة يعني امتلاك فن السباحة في عالم من البحار الهوج.. لذلك مضى إلى عالم الكتب كي يقرأ، ويتعلم، ويتعرف إلى الآخرين والعالم، لقد قام رشاد أبو شاور وهو في العشرين من عمره بدورين أساسين كي يثقف نفسه، الدور الأول تمثل في رشاد أبو شاور المعلم الذي أتي بالكتب (من أين؟ لا أحد يسأل ابن مخيم مثل هذا السؤال)، يضع المعلم الكتب أمام رشاد أبو شاور الذي يقوم بدور التلميذ المطيع الذي عليه أن يلتهم الكتب خلال ساعات أو أيام.. كي تعود الكتب إلى أمكنتها قبل اكتشاف غيابها (أخذاً)، أو كي تعود الكتب إلى أصحابها وفاءً بالوعد المقطوع على رشاد أبو شاور المعلم من أجل أن يعيدها. ولليوم لا يزال الكتاب هو أهم وأثمن شيء عند رشاد أبو شاور. ولليوم، وكلما جاء إليَّ زائراً عزيزاً في مكان عملي.. يسألني سؤاله المحفوض غيباً وبلهجته المحببة: (شوفي كتب جديدة وهامة؟)، ولليوم أراه كيفما دار أو مشى يسأل سؤاله الأزلي عن الكتب. ولأن رشاد أبو شاور يحب الكتب فقد

عقد صداقات هائلة في أهميتها ومكانتها مع الكثير من الأدباء والكتّاب العرب من دون أن يلتقيهم أو يعرفهم.. فهو يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الكتاب الجيد لا يصدر إلا من ذات جيدة. وفي سيرة الكتابة والمعرفة لا بدّ من القول إن رشاد أبو شاور لا يفعل كما يفعل مجايلوه الذين لا يسألون إلا عن رفاق العمر وكتبهم، وإنما هو يسأل عن الكتّاب الجدد، وعن المواهب الجديدة، وعن أعمارهم الشبابية، وهو بذلك توءم الأديبة كوليت خوري التي جعلت من قضية الشباب قضية إبداع، وقضية حياة، فلا حياة فوّارة حارة خارج حياة الشباب، ولا إبداع متوهّج نافر خارج إبداع الشباب.. كما لا يمكن تصور كوليت خوري من دون حماستها الشابية، وفورتها الإبداعية الدائمة، فهي تقول دائماً الشباب هم المستقبل، أما أنا... فمولودة في المستقبل ...

وبسبب حب الكتاب، كوّن رشاد أبو شاور أكثر من مكتبة حقيقية في المنازل التي عاش فيها في المنافي المتوالدة، كلّها آلت إلى أيدي الأصدقاء.. لأن غربته الدائمة حالت دون أن يمكث طويلاً في أي من الأمكنة التي عاش فيها (دمشق، عمّان، بيروت، بغداد، طرابلس..)، والكتب، كتب رشاد، هي التي كانت تتحدث عنه لأنه مرَّ بصفحاتها حرّاثاً لمعرفتها، وناهلاً من روائها.. وفي هذه المدن كوّن رشاد أبو شاور صداقات ثمينة مع أدبائها (الشعراء والقاصين والروائيين والمترجمين والدارسين والمسرحيين).. كان صديقاً لـ ياسين رفاعية، ونصر الدين البحرة، وزكريا تامر، وهاني الراهب، ونذير نبعة، وعبد النبي حجازي، وسعيد حوارنية، وحسيب كيالي، ووليد إخلاصي، وكوليت خوري، وعلي

عقلـة عرسـان، وسـعد الله ونـوس، وحنـا مينـة، وممـدوح عـدوان، وعلـي الجنـدي، ومحمـد عمـران، وعلـي كنعـان، وفـواز عيـد، ويوسـف الخطيـب، وسليمان العيسى، وأحمد دحبور، وصالح هواري.. في الشام، وله مثل هذه الصداقات في بيروت، وعمّان، وبغداد، وطرابلس، والقاهرة.. لقد حرص أن يقرأ كل هؤلاء في مدوناتهم، وأن يقرأ المدونات الإبداعية العربية في تجاربها الأهم في البلاد العربية، بعد أن قرأ مدونة الأدب الفلسطيني في أجيالها المتعددة، ومدونة الأدب الروسي والسوفييتي في أعلامها العظام: تشيخوف. دوستويفسكي. تورغنيف، تولستوي، غوغول، بوشكين، جنكيز ايتماتوف، رسول حمزاتوف، فالنتين راسبوتين،.. وراح يتلقف كل ما تصدره وزارة الثقافة السورية من ترجمات اهتمّت بها شخصياً وأشرفت على طباعتها سيدة الثقافة السورية د. نجاح العطار، فراح الإبداع الإنكليزي والفرنسي والأسباني والإيطالي والألماني والبرتغالي يتوالى تترى عبر كتاب أو كتابين في الأسبوع الواحد.

وحين حلّ به الترحال نزيلاً على بيروت (فدائياً وأديباً) راح ينهل من ينابيع دور نشرها، وخصوصاً دار الآداب التي عنيت بالكتب الفلسفية، فعرف عالم الفلسفة في نظرياتها الوجودية، والعدمية، فقرأ البيركامو، وجان بول سارتر، وجان جينيه، بعدما قرأ في بيت والده الفكر الماركسي ليس من أجله هو وحده، وإنما من أجل والده الذي لا يقرأ ولا يكتب، ومع ذلك كان يصر على أن يكون مثقفاً ماركسياً، يحفظ مقولات ماركس، وأنجلز، ولينين.. عن ظهر قلب.. وحين صارت بعض دور النشر اللبنانية تتعاون مع دائرة الإعلام والثقافة في م.ت.ف.. صار رشاد أبو شاور جهةً

لاختيار بعض منشوراتها كي يتثقف بها ومن خلالها أهلُ القواعد الفدائية قبل أن تأخذهم يد الغياب والفقد.. وقد صارت هذه القواعد الفدائية أشبه بالمراكز الثقافية التي رادها رشاد أبو شاور ورفاقه الأدباء (أحمد دحبور، يحيى يخلف، محمد القيسي، محمد لافي، محمود درويش، توفيق فياض، مي صايغ،..) كي تصير منصات إلقاء للشعر والقصة القصيرة، أو منصات للتثقيف السياسي. وقد أسهم عمل رشاد أبو شاور في الإذاعة الفلسطينية، والصحف والمجلات الفلسطينية في صقل موهبته، وقدرته الإبداعية كي يكون حاضر الذهن، متحفزاً دائماً للكتابة في كل لحظة ووقت..

بدايات رشاد أبو شاور القصصية (نشراً) كانت في عام ١٩٦٦ حين ظهرت له أول قصة منشورة في جريدة ذات أهمية قصوى في أيامها، أعني جريدة (الجهاد) المقدسية حيث نشر قصته الأولى (الليل) التي طوّبته قاصاًَ بادياً، هذه القصة ستظهر في مجموعته القصصية (بيت أخضر ذو سقف قرميدي)، (والتي سيراها القارئ الكريم منشورة هنا في هذه المختارات القصصية)، أما القصة الثانية فقد نشرها في جريدة (الجهاد) المقدسية أيضاً، وعنوانها (أحذية الآخرين) والتي لن تظهر في أي من مجموعاته القصصية التي نشرت له (لعلها فقدت مع البيوت والناس والحقول حين حلّت هزيمة ١٩٦٧).. أما القصة الأولى التي نشرها رشاد أبو شاور في الصحف والمجلات العربية، فكانت قصته (ذكرى الأيام الماضية) التي ستكون عنواناً لمجموعته القصصية الأولى التي صدرت في عام ١٩٧٠ عن دار الطليعة في بيروت، وقد نشرت هذه القصة في صحيفة الأحد لصاحبها المرحوم رياض طه، وقد كان نشرها في ١١

حزيران ١٩٦٧ أي بعد خمسة أيام من نكسة ١٩٦٧. وقد نال رشاد أبو شاور تقريظاً طيباً ماشى قصصه التي راحت تظهر هنا وهناك، وبات خلال فترة قصيرة من الزمن واحداً من أبرز كتاب القصة القصيرة الفلسطينية، وراحت مجموعاته القصصية تظهر تباعاً مرّة في بيروت، وأخرى في بغداد، وثالثة في دمشق، كما راح يكتب الرواية، فظهرت له وخلال عامين روايتان شغلتا الساحة الثقافة العربية هما: (أيام الحب والموت/ ١٩٧٣)، و(البكاء على صدر الحبيب/ ١٩٧٤)، ومن بعد صدرت روايته الأشهَر (العشاق/ ١٩٧٧) التي طوّبت رشاد أبو شاور روائياً من طراز نادر، فكتب عنها خيرة النقاد العرب، لا بل إن الشاعر سليمان العيسى قرظها بقصيدة تحمل العنوان نفسه وأهداها إلى (الأديب الفلسطيني الرائع رشاد أبو شاور). ولم يقف رشاد أبو شاور عند حدود الكتابة القصصية والروائية، وإنما مضى إلى الكتابة إلى الأطفال فأصدر عدداً من كتب الأطفال هي: (عطر الياسمين) و(أحلام والحصان الأبيض) و(أرض العسل)، وكذلك مضى إلى كتابة المسرحية فكانت مسرحيته المهمة (الغريب والسلطان)، يضاف إلى ذلك كتاباته النثرية التي تراوحت بين السيرة الذاتية (تمر حنة) والنقد الذاتي والسياسي للحال الفلسطينية مثل: (ثورة في عصر القرود) و(آه بيروت)..

ومن خلال هذه الكتب أولاً، والحضور الثقافي الذي شكّله وأوجده رشاد أبو شاور الذي يشبه طائرة حوّامة في إحاطته المتعاظمة ثانياً.. صار اسم رشاد أبو شاور جهة للأدب المقاوم، والثقافة المقاومة، والحوار الوطني الصلد، كما صارت مؤلفاته وإبداعاته جهة للترجمة إلى اللغات

العالمية (الإنكليزية، الفرنسية، والألمانية، الفارسية، الأرمنية، الإيطالية..) ليس بوصفها ممثلة للحال الفلسطينية وتشققاتها الكثيرة، وطموحاتها النبيلة وحسب، وإنما بوصفها نصوصاً تمثل الإبداع العربي في نماذجه الأصفى والأرقى والأهم، وكلّ هذا جعل من رشاد أبو شاور الكاتب، والوطني.. جهة خطاب ومخاطبة، وجهة سؤال وإجابة، وجهة معنى..

وبعد، فإنني مترع بالاعتزاز، وقد قيضت لي الظروف الفرصة كي أكتب عن أديب ثقّف نفسه بنفسه، أديب تعلّم في مدرسة الحياة، تعلم من الطبيعة، ومن أمه، ومن محمود أبو شاور (والده)، ومن رحيل الرفاق، وعزله القواعد الفدائية، وغربة المدن، وأوجاع المنفى، ومن تاريخ فلسطين العزيزة وتراثها، فلسطين أمنا الكبرى، والجهة التي تدق لها قلوبنا.. كما تعلّم من تجارب الآخرين، تعثر كثيراً وأحبط كثيراً، وصادفته عدوات ومكاره كثيرة أيضاً... لكنه لم يسقط، وقاوم كثيراً بالمحبة، والصبر.. كي لا يُهزم، وناضل كثيراً ليس من أجل أن يصل إلى غاياته، وإنما من أجل أن تصل فلسطين العزيزة إلى غاياتها..

هاهو ذا رشاد أبو شاور الإنسان أولاً، وها هوذا الأديب رشاد أبو شاور ثانياً... كلاهما يبدو أمامنا، وفي توحّد عجيب، بكل طيبته، ولهفته، وأشواقه، ونصوصه.. في مرآة لا أجمل منها ولا أبدع.. ها هوذا يبدو بكامل قامته.. في مرآة المحبة.

بيت أخضر ذو سقف قرميدي

عندما أصبحا خارج البوابة، نظرا إلى بعضهما بألفة، ابتسما، مدا ذراعيهما الصغيرين وشبكا أصابعهما. أخذا يحجلان، يهزان رأسيهما مثل دوريين سعيدين. انتهيا إلى سفح جبل التجربة(١)، وهناك عند الطريق الترابي الذي يوصل إلى عين الديوك(٢)، رسما مستطيلاً ثم قطعاه إلى مربعات وأحضرا حصاة مسطحة وطفقا يلعبان الحجلة.. يقفزان، يلهثان، يضحكان.

قفز حسن قفزتين ثم توقف وأرخى ساقه إلى جوار ساقه الأخرى، وقال للبنت زينب:

– تعبت؟

قالت له

– تعال نقعد هناك.

أشارت بإصبعها الصغيرة إلى شجرة نخيل كانا يجلسان تحتها دائماً حين ينهكهما التعب.

أخذ يحجل على قدميه، ينزل واحدة ويرفع الأخرى، مع قفزات واسعة، ثم قذف بجسده في الهواء وتدحرج على العشب الأخضر الفسيح. أما هي فكانت تسير ببطء، وهي تتطلع إليه وعلى ثغرها السكري ابتسامة ترتعش مثل فراشة.

تمددت إلى جواره على العشب، كانت المياه تنساب في قناة صغيرة تروي الحقل، غمس رأسه وبلل عنقه، ثم حفن من الماء براحتيه ورش عليها فاجفلت مولولة بدلال، لكنه رش عيها الماء مرة أخرى فتبلل فستانها والتصق بكتفيها.

- بللتني.

- هي.. هي.. هي.

- ستضربني أمي.

- إذا ضربتك سأبتاع سكيناً وأتسلل إلى بيتكم في الليل وأذبحها.

وضعت البنت زينب راحتيها الصغيرتين على عينيها وأخذت تبكي.

- لماذا تريد قتلها، هل تريد أن تجعلني أحيا بلا أم؟

اقترب منها، ضم رأسها إلى صدره، وأخذ يهدهدها.

- لا.. لن أقتلها.. أنا أضحك معك فقط.

- لن تشتري سكيناً أليس كذلك؟

قال وفي صوته حزن كثير:

- لن أشتري سكيناً.

- ولن تفكر في قتل أمي حتى ولو ضربتني؟

قال لها

- حتى ولو ضربتك وضربتني أيضاً. وسأحبها من أجلك.

وضعا الدفتر أمامها على العشب، أخرجا من جيوبهما قطع التلاوين الشمعية. بدأت إصبعهما تضغط بالألوان الشمعية على الورق فتخرج صريراً خافتاً. رسما بيتاً بالأخضر والأحمر جدرانه خضراء. أما سطحه فاحمر بلون القرميد الذي يغطي أسقف بيوتات أريحا.. كتب حسن تحت البيت: هذا بيت حسن وزينب.

- يجب أن نعمل للبيت سوراً من الأشجار.

رسما بالأخضر أشجار برتقال كثيرة، عليها برتقال كثير.

قالت:

- وهذه شجرة نخيل لأنك تحب هذه النخلة التي نجلس تحتها.

قال لها:

- وهذه عصفورة لها ريش أشقر.

وعندما انتهيا من رسم العصفورة سمعا سقسقة عذبة فقالا معاً:

- يا الله . .. يا الله.

وتطلعا في عيني بعضهما وضحكا.

قالت له:

- ولكن أين سيكون بيتنا؟

قال لهما

- لا أدري.. تسكنين معنا أنا وأهلي في قريتنا.

قالت له:

- ولكن أنا صغيرة وربما لن يقبل أهلي بفراقهم.

قال لها

-وأنا صغير وربما لن يقبل أهلي بفراقهم.

طوت رأسها بين ذراعيها، بدت مثل حمامة وحيدة. وضع رأسه على ساق شجرة النخيل وقد تغيرت ملامحه.

ناداها.. لكنها نهنهت.. ولم تجب. حفن بعض الماء وغسل وجهها، ومسد شعرها، ثم نقر على أنفها بإصبعه فأينع الضوء بين شفتيها، وكان وجهها قد صار برتقالة غسلها الندى.

قال لها:

- الأستاذ قال لنا: سنرجع إلى ديارنا

قالت له

- المعلمة قالت لنا: سنعود إلى قرانا. ثم أمرتنا بالانصراف.

قال لها:

- ولكن سنفترق ولن أراك إذ عدنا إلى هناك.

غرقت البنت في الصمت، أخذها من يدها، وضع الدفتر تحت إبطه، دس التلاوين في جيب فستانها ثم سارا متلاصقين.

قال لها

- ولكنني سأكبر، وأحضر إلى بيتكم وآخذك..

قالت له

- وإن نسيتني؟

قال لها

- كيف أنساك؟

وكي يخرجها من صمتها وحزنها سألها:

- كيف سينزل من السماء، هناك بين الصخور الحادة؟(٣)

قالت له

- لست أدري، ولكن لماذا بيته بين تلك الصخور..

سمعا صوتاً حاداً يعبر فوقهما. رأيا نار هائلة تشب عند قصر هشام(٤). خافا. أخذا يركضان.

قال لها:

- الحرب جاءت..

قالت له بأنفاس مقطعة:

- أنا خائفة.

ضغط على يدها:

- لا تخافي أنا معك.

ضاعفا من عدوهما. كانت الأصوات الحادة تعبر فوقهما.. تدحرج رأساهما ثم استقرا متجاورين.. كانا مثل برتقالتين ذابلتين.. لحمهما التصق بالأشجار. تناثرت التلاوين طارت ورقة مرسوم عليها بيت أخضر ذو سقف قرميدي. مكتوب تحته:

حسن يحب زينب

١ – جبل التجربة: هو جبل صخري عظيم يطل على مدينة أريحا، وفي صخوره حفر دير كبير وفي ذلك الدير ينتظر رجال الدين المسيحي هبوط المسيح وعودته مرة أخرى.

٢ – عين الديوك: نبع ماء بعيد عن أريحا بضع كيلو مترات، يروي حقول أريحا.

٣ – يقصد المسيح

٤ – قصر هشام بن عبد الملك.. شمالي أريحا، وهو قصر أثري.

الليل

الساعة حوالي الثالثة ليلاً، الفراش ملقى على الأرض في زاوية غرفة الطين الضيقة. الرجل يتمدد، جسمه نحيل، وجهه شاحب، عيناه أغلق جفناهما، يداه تصلبتا على صدره الصمت في الشوارع، أغصان الأشجار تتحرك أشباحاً صغيرة في ظلام الليلة الشتائية. لا أحد في الغرفة غير الرجل المطروح في فراشه والعجوز التي تحتضن رأسها بيديها المكتهلتي العروق.

.. الصمت. البكاء بصمت في ليل الشتاء الطويل حيث لا يوجد أحد.

.. الشوارع خالية، الجيران ينامون، ضوء المصباح الصغير يتراقص، من ثقوب الباب تنساب الريح. ظلال مجنونة تتراقص على الجدران، سقف الغرفة المنخفض معتم، والزاوية يضيئها المصباح. وجه الرجل بلا غطاء.

نظرت المرأة من الكوة الصغيرة، لا توجد أية نجمة تضيء ليل الشتاء، الغيوم رمادية، الريح تعوي، تعوي بجنون، الليل يجثم على العال.م العجوز تبكي داخل الغرفة، الرجل ممدد في الفراش على الأرض المقرورة المنبوشة. الدموع الصغيرة تتلألأ، على ضوء المصباح تسيل على الوجه الهرم في ليل الشتاء الطويل القارص. الليل صمت، طويل، رهيب وهي وحيدة... وحيدة مع الدموع والظلال المتراقصة على الجدران.

الوجه المتجعد يزداد كآبة، ترتسم عليه علامات الرعب والفجيعة. يااللمصيبة لن يبقى لي أحد إذا مات.

الريح تعوي، والليل يهجم على الحياة.. من الكوة الصغيرة ينساب.. نواح رهيب.

– لا.. يا رب.. لا.. وأتاها صوته مرهقاً متعباً، لا..

– لا تودعيني بالدموع أرجوك.

ارتعش جسمها الواهن، ارتجفت تجاعيد وجهها، التفتت حولها...

– ألا تسمعيني... إنني أموت، لقد انتهت الحياة في هذا الجسد. لست أكثر من جثة عجوز متعبة في غرفة أشبه بالقبر، فلنفترق بصمت.

– أما زلت حيا؟

أجاب: إنني في عالم الأموات الآن...

– أأنت ميت؟ ماذا؟ وتتكلم؟ كيف يحدث هذا يا رب؟

انطلق صوته الأجش الراسخ.. لم يبق لي غير النطق الكلام... وهل لي غير الكلام؟

فتحت العجوز فاها كادت تصرخ..

– لا.. لا تفعلي ذلك.. سيقولون إنك مجنونة هل تريدين أن يأتي الناس وتخبريهم بأن الميت يتكلم..

– ولكن ربما لم تكن ميتاً..؟!

– أنا أعرف كل شيء.. أنت وحيدة الآن.. عليك أن تعرفي ذلك.. وأن تنتظري أبننا.. ابنك المغترب..

– آه أين هو الآن.. ترى هل سيأتي؟؟

أجابها بإيمان:

ـ نعم سيأتي.. من أجلك أنت لا بد سيأتي.. هذا هو أملك الوحيد.. قفزت المرأة حين دخلت قطة فجأة من النافذة يسبقها مواؤها الحاد: ـ سألها بألم..

– أما زلت تخافين القطط.؟

رحلت نظراتها من خلال الكوة، وكأنما تسترجع ماضيها الكئيب.

– أمي هي السبب.. كانت تخيفني بها منذ كنت صغيرة.

– أطعميها شيئاً..

تحركت العجوز، أخذت تبحث عن قطعة خبز؛ نبشت ثوباً قديماً فوجدت قطعة خبز جافة.

كانت القطة متكومة في زاوية الغرفة، عيناها تلتمعان، ألقت العجوز لها بقطعة من الخبز اليابس.

– هل تأكلين؟ أشارت لها بإصبعها.

– ميو... و.. و.

– أترفضين؟.. إذن لم أتيت إلى غرفتنا المقرورة أم أنك خائفة؟ وتريدين من يؤنسك.

– ميو. و.. و.

ارتفع صوته المشروخ:

اتركيها.. الفجر يقترب.. يجب أن استعد نهائياً.. أما زلت تخافين القطط.

– لا.. أظن أنني لن أخافها بعد الآن.

– هذا رائع.. عليك أن تعدي نفسك لانتظار ابننا..

ولدك.. ادفنوني هناك في.. في، وشهق وارتجف جسده قليلاً ثم مال رأسه ومات..

اقتربت المرأة. حركت يد زوجها.. صرخت.. مات.. ما.. ت نظرت من الكوة.. بدا الليل ينسحب.. الغيوم ما زالت تخفي وجه السماء.. الساحة خالية. لا أحد يجوب الشوارع.

الصحراء

رأيتهما مرّات كثيرة، وهما يركبان دراجة نارية، أحدهما يقود والآخر يجلس وراءه ممسكاً به بشيء من اللامبالاة، وبندقيتا الصيد مشدودتان إلى ظهريهما، وفوهتا البندقيتين تتجهان إلى السماء، والدراجة تمضي بهما ببطء، وبعض العيون في شارع فلسطين في الساحة، وعند مواقف الباص ترمقهما بفضول وهما يثرثران. ولقد تساءلت في كل مرة رأيتهما فيها، كيف يسمعان صوتيهما وجلبة دراجتهما النارية تملأ فضاء الشارع أمامهما وخلفهما؟!. وصلت إلى استنتاج أنهما يتدللان على الناس والحياة، ويسعدان بشبوبيتهما، وأنهما يقومان بما يشبه الاستعراض للفت الانتباه، خاصة وفي الشارع بنات مدارس، ومعلمات، وصبايا في طريقهن إلى أعمالهن. ولو كان الأمر غير ذلك إذن لعبرا شارع فلسطين في دقيقة واحدة.

إنهما على نحو ما نجمان في مخيم اليرموك، وإن كنت شخصياً لا أعرف اسميهما، أو عملهما – إذ لا يعقل أن يكون الصيد عملهما الوحيد! – أو حتى مكاني اقامتيهما في المخيم حيث أقيم وأسرتي منذ أكثر من عشرة أعوام.

كل ما عرفته عنهما أنهما يذهبان للصيد في صحراء (الضمير) بعد بلدة (دوما)، حيث يصطادان الأرانب البرية، وربما الحجل، أو ما لست أدري.

وصحراء الضمير تأخذك إلى بادية الشام، وعندما تصلها تكتشف أن دمشق الشام فعلاً واحة في صحراء، وأن دمشق بدون الغوطتين صحراء بلقع.

انتشر الخبر في مخيم اليرموك، وكما يقول المثل (يا بنت قولي لأمك). انتقل من فم لأذن لفم لأذن، للكبار والصغار، للعجائز والشابات، للمعلمات وبنات المدارس، وبلغ ذروته عندما ارتفع الصوت في مكبر مسجد (عبد القادر الحسيني)، متهدجاً، حزيناً، معلناً أن الشابين محمود وعلي ذهبا إلى الصيد في صحراء (الضمير) وكان من عادتهما العودة في مساء نفس اليوم الذي يذهبان فيه، لكنهما منذ أول أمس خرجا ولم يعودا.

خرجت من بيتنا في شارع اليرموك. تمشيت إلى شارع فلسطين، وإذا بمئات الناس يندفعون إلى الشوارع من الأزقة والشوارع الفرعية، وقد حمل بعضهم صفيحة ماء، أو وعاء بلاستيكياً، أو مطرة عسكرية. دوت منبهات السيارات الكبيرة والصغيرة، واندفع شبان على دراجات هوائية، وهدرت بعض الدراجات النارية وأشارت الحشود التي تجمعت في شارع فلسطين وأمام سينما (النجوم) لسائقي الباصات وسيارات التاكسي أن يتوقفوا فتوقفوا. اندفع العشرات والمئات وارتفعت الأصوات: إلى صحراء (الضمير)، يا شباب. تحمس السائقون، واندفعت عشرات السيارات، وبعضها سيارات خاصة. من مسجد عبد القادر الحسيني، ارتفعت التكبيرات عبر مكبرات الصوت. وجدتني انحشر مع الناس في سيارة باص. لم أسأل نفسي ماذا علي أن أفعل. إنني واحد من هؤلاء الذاهبين

إلى صحراء (الضمير) لإنقاذ ابني مخيمنا. لم يقترح أحد خطة للبحث في الصحراء، ثم من يعرف الصحراء ليضع خطة، أو يقدم اقتراحاً عملياً واقعياً جدياً.

صحراء الضمير تأخذك إلى بادية الشام. إلى صحراء رهيبة فسيحة تمتد بين سورية والأردن والعراق والسعودية، وهذا ما نعرفه من كتب الجغرافيا. ولكن الكلام شيء والصحراء شيء آخر. ثم ماذا لو ضعنا جميعاً، ودخلنا حدوداً عربية دون قصد منا؟ كيف نقنع حراس الحدود بأننا فقط نريد إنقاذ شابين من أبناء مخيمنا تاها في الصحراء، شابين مولعين بالصيد، مفتونين بشبوبيتهما، محبين للمغامرة؟

أثارت السيارات عاصفة من الرمال وهي تتوقف عند تخوم الصحراء. نزل الناس واندفعوا على الرمال الساخنة. مضوا بين النباتات الشوكية اليابسة. صاروا حبلاً يرتسم على الرمال، يندفع بعيداً بعيداً، يتلوى، يدور، ببطء، ثم يندفع، والناص صاروا ينضافون واحداً إثر الآخر، وهكذا، السيارات والموتورات والدراجات. يهبط الناس فيصطفون، ويدفعون بالخيط البشري عميقاً وبعيداً في الصحراء. ولأنني أشكو من حساسية مفرطة ـ ربو ـ أخذت أتأمل، ولم آخذ موقعاً في الصف الخيطي المندفع في الصحراء، بل قرفصت مع بعض العواجيز من الرجال والنساء ووجدت لنفسي عملاً أؤديه بنقل بعض صفائح وأباريق الماء استعداداً لتزويد خط الناس المندفع في الصحراء.

أشعلت مصابيح الكاز والغاز، بعد أن اختفت الشمس، رغم أن الليل لم يكن قد هبط تماماً. لقد أضاء القمر وتألقت ألوف ألوف النجوم وسال الضوء الشاحب وخيل لي أن الأرض والسماء امتزجتا وأننا نسري في لا مكان. رغبت في التخفف من ملابسي، وهيئ لي أنني أوشك على أن أشف وأتبدد في هذا الليل الرقيق المليء بالنجوم وهمهمة البشر المؤنسة الغامضة.

أدار سائقو السيارات أضواء سياراتهم باتجاه الصحراء، ومعاً سلطوا الأضواء فرأيت الخيط الذاهب بعيداً ولكنني لم أر آخره. أخذنا ننقل أباريق الماء والمطرات إلى ناس الخيط، وهكذا نظمنا عملية الشرب، وكنا بين وقت وآخر نسمع أصوات نداءات بعيدة في ليل الصحراء.

سهوت قليلاً. وجدتني أستلقي على ظهري. فتحت عيني على النجوم والقمر وضوء درب التبانة (الحليبي). لم أرضَ عن وصف الضوء بالحليبي. بعد تأمل اهتديت إلى أن هذا الضوء هو نثار فضة، ثم حاولت أن أستذكر الأوصاف التي أعطاها الشعراء الجاهليون والقدامى لهذا النور.

اقترب الفجر. شعرت بالبرد. جلست وحاولت التنفس بعمق. دوّت زغاريد. أخذت الزغاريد تقترب، وارتفعت أصوات:

وجدناهما، وجدناهما.

الأفواه تقول والآذان تسمع، والحواس تختلط تؤججها زغاريد نسائية من جوف السيارات.

عـدنا إلـى المخـيم بهمـا، وهمـا ذابـلان منهكـان، يتكلمـان بـبطء وذهـول. عرفنـا أنهمـا تـوغلا وراء غزالـة، وأنهمـا لـم يقـدّرا المسـافة، وأن دورانهمـا تحـت الشـمس أرهقهمـا، وأنهمـا نسـيا المـاء، وأن الريـاح هبـت عاصفة فتاها عن دراجتهما النارية وذهلا عن الاتجاهات. قالا: شربنا بولنا، وأرهقنا السراب، وخشينا الموت.

كانـا يهـذيان والأطبـاء والممرضـات والممرضـون يحيطـون بهمـا فـي مصحة (محمد الخامس) والناس يتبادلون التهاني ويرددون:

شيء غريب والله، قال الصحراء تريد أن تأخذهما منا!

بعد يومين رأيتهما على دراجة جديدة أضخم من دراجتهما السابقة، لوحّا لي فوجدتني أحذرها:

- انتبها من الصحراء! إنها ليست لعبة!

هـز أحـدهما قبضـته ورفـع صـوته، ولكـن الصـوت اختفـى فـي دوي الدراجة النارية المبتعدة..

سمعت تعليق رجل عجوز، أخذ يهز رأسه مردّداً:

- عنيدون حقاً.. مثل الذين أنجبوهما! .. أليسا فلسطينيين! ..

حياة موحشة ..

كوّم دفاتر التلاميذ على الطاولة، وفرك يديه لتدفئتهما قبل أن يمسك القلم ويشرع في تصحيح واجبات التلاميذ، ووضع العلامات المناسبة...

أشعل مدفأة الغاز متأملاً شعلتها الزرقاء الصغيرة التي تفشّت في الأسلاك وتوهجت بحمرة ذكّرته بالخوخ الأحمر في كروم (الخضر)...

زجاج النافذة مغطّى بغشاوة ضبابية، وحبات المطر تنقر كأنها مناقير عصافير جائعة، وهو يقف في وسط الغرفة يتأمل حالته بعد رحيل (أم فوزي)...

أنت وحيد تماماً!. الأولاد والبنات كبروا وتوزّعوا، ومنهم تصلك رسائل في أوقات متباعدة، تكتبك أكثر مما تريحك وتسعدك، فهي تذكّرك أنك وحيد، وأن الأبناء والبنات كبروا، وطاروا من عشّهم، وأنهم انخرطوا في بناء حياتهم، وأن أمهم ماتت، وأنك مجرد معلّم عجوز، وحيد، في مخيم البقعة.

يتأمل كوم الدفاتر المرتفع بشيء من الحسرة والحزن. ثلاثون عاماً وأنا أعلّم، وأعطي واجبات، وأصحح دفاتر، وأقلّب نفس الكتب، ومن بين يدي يمر تلاميذ، يكبرون، وينتشرون في هذه الدنيا الضيقة علينا، بعضهم رأيت صورته شهيداً، بعضهم تخرّج طبيباً، أو مهندساً، أو صار معلّماً في

بلد خليجي، وثمّة منهم من يقضي وقته على المقهى، أو يبيع الخضار، أو ملابس (البالة).

ماذا أفعل؟ أأتزوج من جديد، بعد رحلة العمر مع (أم فوزي)؟!.

أتزوج وأنجب بعد هذا العمر، وهذه الشيبة، وانكسار الظهر؟. ومن يربي من سأنجب؟. أأتزوج أرملة لتؤنس آخر أيامي؟. وما يدريني إن أشقتني العيشة مع مخلوقة لا أعرفها ولا تعرفني، وكل ما في الأمر أننا سنتواطأ للعيش معاً دون حب، أو مشاركة.

أصوات الباعة تأتيه من الشارع، وجلبة الأطفال الذين لا يمنعهم المطر، ووحل الأزقة، وتحذيرات الأمهات من عدم الخروج، والانتباه من السيارات.

اليوم الجمعة، يوم عطلة، ولكنه يشغل نفسه بتصحيح دفاتر التلاميذ، ومن بعد يتوجه إلى المسجد، ثمّ يعود ليعد غداءه، ما تيسر، بحسب رغبته، ومزاجه، فهو لم يعتد على الطبخ، وبعد أم فوزي لم يستسغ أكل النواشف، في حياته وأيامه التي باتت أكثر نشافةً من أرغفة الخبز التي ينساها لأيام بعد أن قلّت رغبته في الطعام، وتشابهت الأيام، ولم يعتد الجلوس وأمامه طبق، أو طبقان، يحويان طعاماً يسكت الجوع، ولكنه لا يمتع، طعاماً يمضغه بلا مبالاة، كالأيام التي تتوالى متشابهة في حياته...

أخذ يفلفش الدفاتر متأملاً أسماء التلاميذ، أولئك الذين يعرفهم واحداً واحداً، اسماً وشكلاً وسلوكاً. المتفوقون المتنافسون على المرتبة الأولى ثلاثة، ومن يأتون بعدهم خمسة أو ستة، ثم الجيدون، فالمتوسطون،

فـ.. الأوباش!. هكذا اعتاد أن يصفهم، ولكن أكثر من يغيظه هو حسّان الـذكي، ولكـن المشـتت الانتبـاه، والـذي يحلـم أن يكـون طيّـاراً. وبعـد أن أقنعتـه بـأن هـذا الحلـم مسـتحيل التحقـق كونـه فلسـطينياً، والـدول العربيـة وغيرها لن تشغل فلسطينياً طياراً على خطوطها الجوية، صحّح لي بأنه يريد أن يكون طيّاراً عسكرياً. ولمّا سألته بحنق وسخرية عن المطار الذي سيقلع منه، وسلاح الجو الذي سيباهي بقدراته.. صمت، وبعد أن تواضع، وتخلّى عـن طموحـه فـي قيـادة طـائرة مقاتلـة أخـذ يصـدر صـوت سـيّارة إسـعاف، وأخبرني وأنا أطرده خارج الصف بأنه يريد أن يكون سائق سيّارة إسعاف لينقـذ الجرحى. أي جرحى؟. أجابني بهـدوء أغـاظني: جرحـى الانتفاضـة يـا أستاذ!.. الست تحضنّا دائماً على عدم نسيان فلسطين، وافتدائها بـالمهج والأرواح؟. ثمّ سألني بخبث:

- ما هي المهج يا أستاذ؟!. فسألته محنقاً:

- وكيـف ستصـل إلـى الضـفة الغربيـة؟ هـل سـتعبر النهـر سـباحة يـا مـن لا تعرف ما هي السباحة؟.

أجابني:

- خالتي هنـاك في مخيم (الدهيشـة) وسترسـل لي تصريح زيارة، وإن لـم تنجح الخطّة سأعبر النهر!

- أو تركّب جناحين كابن فرناس الذي وقع وانكسر ظهره!.

أطفأ المدفأة، ووقف يتأمل السماء، ويبكّل معطفه، ويغطي رأسه بفيصلية اعتاد عليها في أيام الشتاء، وما عاد يخلعها سوى عند النوم، أو داخل غرفة الصف.

الشارع برك ماء صغيرة، وأكوام أوساخ، وطين، وباعة يرتجفون أمام بسطات الخضار، ونساء يشمّرن أثوابهن قليلاً ليحمين أطرافها من التلوّث، وصغار يتعربشون بأمهاتهم المثقلات بما يحملن على رؤوسهن، وخصورهن...

تأمل وجه المرأة التي مرّت غير بعيد عنه، باتجاه معاكس، فأخذت ذاكرته تستعيد ملامح الوجه. إنها هي، والله العظيم هي، ولكن ليس بلحمها وشحمها، فهي كبرت، كما كبرت أنا. وهي تمشي ببطء بسبب السمنة، وهذا ما أختلف به عنها، فأنا لم أسمن وأترهل، ربّما بسبب المشي وعدم ميلي لالتهام الكثير من الطعام، أو لأن جسدي غير مهيّأ للنصاحة.

استدار ولحق بالمرأة التي لم تبتعد كثيراً، وناداها بصوت عال، ناسياً أنه أستاذ وقور:

- راجحة..

توقفت المرأة، والتفتت خلفها إلى مصدر الصوت، مبدية الدهشة من أن رجلاً يناديها باسمها، وأنه يتجه إليها وكأنه يعرفها، في حين أنها لم تعرفه، فهو ليس من أقاربها الذين وفدت من مخيم (الفوّار) لزيارتهم بعد سنوات من الفراق والشوق.

عبارة واحدة، فيها دهشة المفاجأة، وفرحة اللقاء غير المتوقّع:

– هه .. معقول!.

قالت وهي تتأمل وجهه، وهو يقف في مواجهتها. الوجه قريب من الوجه، والعين في العين، والأنفاس تخرج فتلتقي وتتمازج، والتجاعيد تمّحي، والأيام الخوالي ترّف في البال.

– أنت!.

مدا راحتيهما فتلقفت كل راحة الأخرى.

تساءلت:

– أنت هنا، في مخيم (البقعة)؟!. عجيب! لي هنا أكثر من عشرة أيام، وأنت هنا.. في مخيم (البقعة)!

– عشرة أيام وأنت هنا يا راجحة!. عشرة أيام!.. أين كنت كل هذه الأيام؟.

– عند بيت شقيقتي. حضرت مع أصغر أبنائي (عزيز). أنت لا تعرفه، ولدته بعد الـ ٦٧، وهاهو قد كبر، ويريد أن يتزوج. خطبنا له ابنة خالته. يحبان بعضهما، منذ زارهم أول مرّة تعلّق بها، وهي أيضاً، فهو جميل، ومتعلم.. مهندس..

لم تترك يد واحدهما يد الآخر، وهما يقفان الوجه في الوجه، والنظرات تعيد إلى أيام خلت، وتستعيد ملامح غيّرتها السنين!.

– آه يا راجحة آه، الدنيا عجيبة. كم سنة لنا لم نلتق؟ منذ حزيران الـ ٦٧.. أليس كذلك؟.

باغتهما صوت:

– أمي.. أما زلت هنا؟

التفتت إليه بارتباك:

– هذا عمك خليل، الأستاذ (أبو فوزي)، من مخيمنا، عشنا معاً في (الفوّار)، وافترقنا بعد حرب الـ ٦٧..

علّق الأستاذ خليل، وهو يفلت يده من يد راجحة، ويمدّها للسلام على الشاب:

– لا حرب ولا يحزنون، بل يحزنون، بهدلة، ونكبة، ومصيبة. لم تكن حرباً، كانت مصيبة أضاعت ما تبقّى، وغرّبتنا، وها نحن نعيش هذه الحياة البهدلة ..

سألته:

– وأنت، ما أخبارك، وأم فوزي .. كيف حالها؟.

بكل هدوء، وبصوت يكاد لا يسمع:

– أم فوزي تعيشي أنت!. رحلت قبل سنة وثلاثة أشهر وبضعة أيام!.

–والأولاد والبنات؟!.

– الولدان والبنتان تزوّجوا، وتفرّقوا، وها أنا وحدي مع الأيام على رأي شاعرتنا فدوى طوقان!. وأنتم إلى متى ستبقون هنا؟!.

– غداً سأعود إلى البلاد، أمّا عزيز فسيبقى عند الخطيبة أسبوعاً آخر..

تنبّه إلى أنه لم يسألها عن زوجها:

– لم أسألك عن...

– أعطاك عمره قبل خمس سنوات.. بالمرض الخبيث أبعد الله شرّه عنك!.

بغزارة سقط المطر، فبلّلهما، ولم يجدا بدّاً من الوداع، فتصافحت الأيدي، ولكن الذكريات فاقمت شدّة الحزن.

سألته، قبل أن تمضي مبتعدة وفي عينيها دموع؟.

– وأنت، لماذا لا تعود إلى البلاد؟. افعل ما يفعله غيرك، تستطيع شقيقتك (أم محمود) أن تقدّم لك طلب تصريح زيارة ..

– فكرت في الأمر، وكنت أنتظر التقاعد، وهذه آخر سنة في التدريس، سأعود بتصريح، لأدفن هناك، ما دمت حرمت من العيش في البلاد، وقضيتها في الغربة ..

وإذ ابتعدت، بقي هو واقفاً في مطرحه، تمر به السيّارات فتطرطشه بما يتطاير من ماء ووحل من تحت عجلاتها. يرد بعضهم السلام فلا ينتبه، فراجحة، راجحة.. كانت ذات يوم حبه، وأمله، قبل أن يزوّجوها لابن عمها

راشد، منذ تجاوزت أسرتاهما في الخيام بعد نكبة ٤٨، ثمّ في الغرف التي حلّت محل الخيام..

استفاق من استغراقه في الذكريات، واندفع راكضاً للحاق براجحة، ليلّح عليها بأن تقدّم له أخته (أم محمود) طلب تصريح زيارة.. وعندها، عندما يضع قدمه على تراب البلاد، عندها لن يفكر في المغادرة. أما إذا لم يحصل على تصريح بالزيارة فسيدخل ولو سباحة، أو بجناحين، أو.. فهذه الحياة موحشة، موحشة، ولا مستقبل لها، ولا معنى..

هذا ما أخذ يؤكده لنفسه وهو يتأمل دفاتر طلاّب الصف الثالث الإعدادي شعبة (أ)، مفتقداً ذلك الفتى (حسّان)، الذي أراد أن يكون سائق سيّارة إسعاف لينقذ الجرحى، والذي اختفى منذ أسبوع، وما عاد أهله يعرفون عنه شيئاً..

الجثة العارية

الصغار مازالوا يغطون في نوم عميق. أجسادهم متحاضنة، أرجلهم وأيديهم متشابكة.

أسند رأسه إلى الجدار، ظل يحدق إلى الأجساد الصغيرة، في الفراش الرث، (لو أنني لم أتزوج، كنت رحلت من بلد إلى بلد). وهمهم: ما هذه بحياة.

من شقوق الباب تسربت الريح باردة، فارتجف، انحنى، سحب الغطاء، ووارى أجساد الصغار، وأراح رؤوسهم على الوسائد.

(منذ العاشرة وأنا أشتغل في الأرض. أحرث، وأحصد، وأدرس، وأدوخ مع نهاية الموسم، ولا أشبع، كل جهدي، وتعبي يذهب للحاج يعقوب).

سمع صرير البوابة الخارجية، فتنبهت حواسه، دخلت، حزينة، حافية القدمين، ثوبها كالح، يكاد يذوب عن جسدها، تمنى، لو أن الأرض تنشق وتبتلعه، ما هذه بحياة.

سألها بلهفة:

- ألم تقترضي من أهلك؟

قالت بصوت واهن:

- والله يا ابن الحلال ما معهم نقود، والدي لا يكذب.

أطلق آهه ثقيلة.

قالت:

- ولكن والدتي كانت تدخر هذا النصف دينار.

ومدت يدها بورقة النصف دينار فأخذها منها، وقلب الورقة النقدية بين يديه، ثم دسها في جيبه ببطء، وظلت يده مع النصف دينار في جيبه، كأنما يخاف أن تهرب الورقة النقدية.

قال:

- أنا مسافر.

أمسكت بساعده، مشى، فمشت معه.

قالت:

- أحضرت لك زوادة طيبة من بيت أبي.

قال وهو يلف سيكارة.

- الحاج يعقوب هو السبب.

رفعت رأسها ورمقته، رأت وجهه متجهماً فالتاعت، وقالت في سرها: الله ينتقم منك يا حاج يعقوب.

قال:

– الحاج يعتمد هذه الأيام على التراكتور والحاصدة، ما عاد يحتاج لي، أو لغيري. لو أن قطعة أرضنا كبيرة لاعتمدنا عليها في تحصيل رزقنا. لكن سامح الله والدي، أكان يجب أن..

قالت:

– يا ابن الحلال لا تندم، أولادنا يسوون كل مال الدنيا.

قال:

– لست نادماً. ولكن ما كان يجب أن يبيع والدي الأرض للحاج يعقوب، كي أتزوج. الأرض أفضل من كل شيء.

سألته:

– وأفضل مني؟

نظر في عينيها، ولم يجب، فأشاحت بوجهها، وغضت بصرها، وكأنما يتحدث إلى نفسه:

– الحاج يعقوب وحش كاسر. حدأة ملعونة، يعرف متى يكون الفلاح محتاجاً، فينقض، ويفترس.

هذا المال الذي يسيل بين يديه، من أين جاءه؟ من والده.

ووالده، من أين أتاه المال؟ عمل مع الأتراك في إرسال الفلاحين للحرب.

ابنه شر خلف، لشر سلف. الأب عمل مع الأتراك، والابن يبيع الأرض لليهود. أخس، الكلب، طرد الفلاحين، واستعاض عنهم بالتراكتور لحرث الأرض، ولكن لمن هذا التراكتور؟ الكلب.

سألته زوجته:

- لمن؟

- لليهود. سأدخل لأقبل الأولاد.

دخلا، أخذ الصغار يرفعون رؤوسهم، ويجيلون النظر حواليهم. تهللت وجوههم، إذ رأوا شيئاً من الطعام. حثهم على الأكل، فانقضوا، وشرعوا يمضغون خبز القمح، والبيض، والجبن غير مصدقين، بينما كانت ابتسامة الأب تتسع.

أخذ يقبلهم، وهم يمضغون لاهين عن عواطفه.

قالت له:

- يا ابن الحلال، ابق هنا، وابحث عن عمل، هناك من يحتاجون للمرابعين.

قال:

- تعبت من الشغل في الأرض، أريد أن أجمع بعض المال، وأن أرى الدنيا.

خرج، فخرجت وراءه. وقف إذ بلغ البوابة. غبشت الدموع نظراتها، أخذها بين يديه، فانتحبت.

قال:

– سأحزن كثيراً إذا ظللت تبكين.

مسحت الدموع عن عينيها، بطرف الخرقة البيضاء التي تغطي شعرها.

قال:

– لا تخافي علي، سأعود.

ثم مضى عبر الزقاق، فأغلقت البوابة ببطء.

أحنت جذعها، فتدلت قلادة القطع الذهبية الرشادية، لامست الحواف الرهيفة أنف وجبين الحاج يعقوب، فهز رأسه، وسحب اللحاف ليغطي وجهه، لكنها أطبقت يديها حول عنقه، وتضاحكت:

– قم يا حاج، إنه الفجر.

فتح عينيه وابتسم لها.

ضحكت.

– قم صلِّ الصبح، أم أنك تعب!

قرصها في فخذها.

– أنهكتني، استغفر الله العظيم، ولكن ذات يوم سأشرع في الصلاة لأكفر عن ذنوبي.

قالت بدلال:

- الذي يتزوج صغيرة وحلوة مثلي، يجب أن يكون قادراً علي..؟!

رآها حلوة بثوبها المطرز بالحرير الفاقع، وعلى رأسها (غدفتها) المزهرة، ورائحة القرنفل تفوح من جسدها، والحناء تضمخ راحتي يديها، هز رأسه ومد يديه وطوى ساقيها.

الأجداد

- ١ -

سقطت أكثر قرى الخليل (التحتانية)، فلجأ الناس إلى قرية البردان وبعض القرى الأخرى التي ظلت صامدة.

تقاسم الناس لقمة الخبز، والفراش، وغرف البيوت. في البردان تجمع مئات المسلحين، دافعوا، ثم هاجموا، لكنهم لم يتمكنوا من استرداد القرى الضائعة.

تأتي الطائرات. وتلقي بالقذائف، وترش الناس والبيوت وكل شيء بآلاف الطلقات، ثم تروح مخلفة وراءها الدمار والموت.

ومع ذلك، ظلت القرية صامدة في وجه الهجمات، حفروا الخنادق، وتواروا في جوفها، وفاجؤوا المصفحات أكثر .

ذات يوم، شدد الأعداء من هجومهم. جاؤوا مع الفجر، هاجموا على أكثر من محور، اخترقوا الخنادق، وداسوا على الجثث، وكادوا يستولون على المسجد وساحة البيادر؛ المدافعون استماتوا في الدفاع عن القرية.

خرج العجوز مرشد عليان بهيكله الضخم، ولحيته البيضاء الكثة، حاسر الرأس.

رفع العجوز عصاه ولوح بها، وكأنما يهش على قطيع، أرعد صوته:

– اليوم طاب الموت يا شباب، الموت ولا الذل يا رجال، دافعوا عن عظام الأجداد.

تراجع الغزاة إلى التلال، أمام بسالة المدافعين. أخذ الأهالي يجمعون قتلاهم، ويوارونهم التراب، في القبور الفسيحة، مع عظام الأجداد.

ثم تشاوروا في الأمر، فقر رأيهم على ترحيل النساء والأطفال والشيوخ.

تحت جنح الظلام تسللت النسوة، وهن يحملن أطفالهن، وبعض صرر الملابس، وقد سرن على الطريق الترابية المؤدية إلى قرية بيت جبرين.

كن يفكرن بيوم اللقاء، بالأزواج، بالموت، بالبيوت المنتظرة، وكن صامتات، في مواكبهن، لكن أقدامهن كانت تسرع.. وتسرع، من أجل الوصول، قبل أن يراهن الأعداء.

مع فجر اليوم التالي جاءت الطائرات، وأخذت تلقي القنابل فوق البيوت والبساتين التي تحيط بالقرية، أخذت الأشجار تتقصف وتتكسر، واشتعلت النيران، فتبددت بقايا عتمة الليل، وتراقصت الظلال على الجدران، وحوالي الأشجار وخلالها.

فرغ الشيخ مرشد عليان من صلاته، فبسط كفيه، وتمتم ببعض الأدعية، ثم قلب نظره حواليه.

– يا رب هذا هو الجحيم، الموت، والنار، والفراق.

دار بين الأشجار، تحسس الأغصان، والجذوع الضخمة.

توقف إذ تناهى إليه نداء ابنه محمود. ركض ابنه إليه، عبر الأغصان المتشابكة المتهدلة على الأرض، وهو يحني جذعه، وبندقيته الإنكليزية في يده.

نظر محمود بحزن في عيني والده:

- لا أمل يابا، يجب أن نرحل.

- نرحل؟!

تساءل الأب باندهاش:

- إلى أين؟ والأرض؟ وعظام الأجداد؟ هيه: أتقبل الهوان لشيبتي يا محمود؟

قال محمود متوسلاً:

- يا أبي، لقد قاتلنا، ولكن.. معهم طائرات ودبابات، ونحن.. حتى البنادق أصبحت بلا ذخيرة.. لن نستطيع ردهم.

تساءل الشيخ بمرارة:

- تقصد انتهى كل شيء. يا ولدي الشيخ عز الدين قالها لرجاله: موتوا رجالاً. يا ولدي لن أرحل.

ثم قال الأب آمراً:

- هات البندقية، أنت لن تحتاج إليها.

- ولكن يا أبي..

- هات يعني هات.

ناوله البندقية، ولبث واقفاً، منكس الرأس. دفعه الأب في صدره بشيء من الحزم.

- ارحل.. ارحل يا محمود.

بعد أيام، وبعد أن سقطت عشرات القرى، ورحل الناس إلى الخليل، أخذ الرجال يتسللون إلى قراهم ليجلبوا الطعام والفراش لأسرهم. رجع محمود. مشى على الطريق الترابية، صعد التلال، وهبط السفوح، وامتلأت قدماه بالشوك، ونزف الدم من ساقيه، لكنه سار بهمة من أجل الأب.

وصل قرية البردان، تسلل بين الأشجار، قفز فوق الجدران والأسوار، وإذ وصل إلى البستان، نادى بصوت فيه فرح اللقاء:

- يابا.. يابا.

ولكن لم يأته جواب.

أخذ يرفع رأسه بين الأغصان، ويقفز بحذر. وصل شجرة الزيتون الرومية الضخمة الساق، المتهدلة الأغصان، فرأى جسد الأب منكفئاً على التراب، والبندقية إلى جواره، وبعض الرصاصات الفارغة تتناثر حواليه.

زحزح الجسد قليلاً، فشعر بثقله، وانشداده إلى التراب كانت اللحية البيضاء مغروسة في التراب كأنها الجذور، والدم قد امتزج بالتراب، فتيبس التراب حول اللحية، وعلى الجبين والخد، وملأ العين اليمنى، رأى محمود ثقباً صغيراً في الجبين، فترك الرأس يسقط على التراب، ثم أهوى يقبله وينتحب وحيداً معزولاً في الصمت الثقيل.

لـف محمـود والـده بالعبـاءة، حملـه علـى ظهـره، كانـت القـدمان تتجرجران على التراب، وصل محمود المقبرة، قرب البيادر، أزاح الحجر الكبير الذي يسد فوهة القبر الواسع، زحف على قدميه ويديه، ثم سحب الجثة إلى جوف القبر، ومددها إلى جوار العظام المتناثرة. خرج، أعاد الحجر الثقيل، ثم بسط يديه وقرأ الفاتحة، واتجه إلى البستان، حمل البندقية، وسار مسرعاً بين الأشجار، بينما كانت الشمس تغيب.

لـم يستطع أن يعلق على الأمر، ظل سادراً في صمته، لـمَّ جسده الضئيل، وتلفع بعباءته الرمادية المهترئة، حشا غليونه القصير بالتبغ اللاذع، الثقيل الرائحة، ومج أنفاساً متلاحقة.

عاد عثمان ابنه الوحيد للموضوع، قال:

- يا أبي غداً سنرحل. سوف تحضر السيارات وتنقلنا إلى أريحا.

سعل الأب سعالاً متلاحقاً، لهث صدره، أحنى رأسه، وركن الغليون أمامه ثم مد يده إلى إبريق الفخار، وشرب، لكن السعال لم يفارقه.

علق ابنه:

- يجب أن تترك التدخين يا أبي، صحتك لم تعد تحتمل.

بدأ جسد الأب يسكن قليلاً قليلاً، ركز رأسه على الفراش خلفه، ثم مسح عينيه بمنديل قماشي متسخ، قال:

- لم يبق من العمر قدر ما مضى.

جاءت زوجة الابن، والحيرة على رأسها، والماء يرشح فيبلل وجهها، وثوبها، كان الطفلان يتقافزان أمامها، يدوران حولها راكضين، متشيطينين، قافزين عن حبال الخيام المتلاصقة.

قال الابن:

– ربما نجد عملاً، هناك، قالوا: توجد بيارات موز وبرتقال. بل إن بعض الذين يعرفون أريحا قالوا، إن باستطاعة أي أسرة الحصول على قطعة أرض تزرعها وتقتات من محصولها. عاد الأب يمج على الغليون، بينما خرج الابن من فتحة الخيمة، ثنت زوجته جذعها قليلاً، فمد يديه، وأنزل الجرة، بينما الزوجة تطلق التنهدات، وتشكو الطفلين.

قال الأب:

– لا تضربيهما، دعيهما يلعبان، يكفيهما ما سيريانه في زمنهما المقبل.

أخذت زوجة الابن تدس الحطب تحت الصاج، بينما الطنجرة النحاسية تستقر فوق وابور الكاز، وفيها الكوسا والبندورة والبصل.

كان الصغيران يتناوشان الأرغفة، والأم تنتهرهما، بينما نظرات العجوز تتبدد في الفراغ، أما ابنه فكان يسند رأسه على راحتيه، وذراعه مغروسة في الفراش.

قطع الابن الصمت:

– نحن يا أبي لا نستطيع البقاء هنا، في الخليل، في السابق كان الواحد يتسلل ويجلب شيئاً يقيم أود الأسرة، اليهود يطوقون القرى التي سقطت بأيديهم.

قال الأب بتؤدة:

–أنا لن أرحل.

سأل الابن مذهولاً.

–ولكن المخيم كله سيرحل. مع من تبقى؟

– ومن قال لك أنني سأبقى هنا، سأعود إلى ذكرين؟

– يا أبي، ماذا تقول، سيقتلونك على الحدود، فإذا لم تقتل على الحدود سيقتلونك في القرية.

نظف العجوز الغليون ثم حشاه، وأشعله وطفق يخرج الدخان من أنفه وفمه.

–هيييه.. في البداية قالوا لنا ستعودون بعد أسابيع، اليوم يريدون إبعادنا عن قرانا وبيوتنا، يريدون وضعنا بجوار البحر الميت، تحت الشمس الجهنمية، حيث يأكل البعوض أطفالنا.. أنا أعرفها.. صحيح أن فيها بيارات موز وبرتقال، لكنها بعيدة.. هنا أشم رائحة القرية، هناك سأموت كمدا.

أحضرت زوجة الابن الأرغفة المسودة، وفردتها أمام العجوز، والزوج، والولدين اللذين أجهدهما تعب النهار، ثم عادت بصحنين فيهما طبيخ

الكوسا والبندورة، وشرع الجميع يأكلون بصمت. كان الأب على غير عادة يمضغ ببطء.

أمسك برغيف مسود، أخذ يقلبه بين أصابعه.

-أهذا خبز يا عائشة؟ أين خبزك أيام زمان؟ أيام الطابون؟ خبز يرد الروح.

لم تعلق زوجة الابن، كان التعب قد نال منها، وامتلأ قلبها بالحزن لفراق أهلها الذين رحلوا إلى شرقي الأردن.

لمت زوجة الابن بقايا الخبز، ثم فرشت للطفلين ووارتهما ببطانيتين خشنتين، نظفت الطنجرة والصحنين ثم اندست والتصقت بالطفلين، وقبلتهما في جبينهما، عندئذ علق الجد،

– الدنيا من دون أطفال لا تساوي شيئاً، الذي يحرم منهم يحرم من النعيم، أي والله.

أخذ العجوز فراشه وخرج، تمدد أمام الخيمة، قال له ابنه:

– نم معنا في الخيمة يا أبي.

قال الأب:

– الجو حار، وأنا أحب رؤية النجوم، والسماء والقمر. حمل الابن إبريق الماء ووضعه عند الأب، ثم اندس مع أطفاله وزوجته، وبعد قليل تصاعد الشخير. لم ينم العجوز، ظل ساهراً يفكر في أحوال الدنيا، وتقلبات الزمن، يتذكر الأصدقاء والأهل الذين طواهم الموت، أحياناً كان يردد: يا ليت الموت أتاني هناك في القرية، لكان ذلك أكرم وأشرف خاتمة لحياتي.

طريق التبانة شاحبة، والنجوم تلمع في السماء الفسيحة. ارتعش جسد العجوز، فوضع البطانية فوق العباءة، وغز كوعه، وسها قليلاً.

سمع آذان الفجر،فتنبه من غفلته. مر براحته على وجهه واستغفر الله، ولعن الشيطان، ثم قام فتوضأ، وصلى، وأخذ يتلو بعض الأدعية.

فتح باب الخيمة ومد رأسه بهدوء، فرأى الرؤوس الأربعة متقاربة، والصدور تعلو وتهبط تحت البطانيات، فهز رأسه بأسى، ونصب جذعه، ثم لف عباءته حول جسده الضئيل، وأخذ يتوكأ على عصاه، وانطلق يسير على الطريق الترابية بين التلال والجبال صوب القرية.

ممنوع التدخين

جاء أبو سليم. يد جاكتته اليسرى تتأرجح إلى جواره. تخطى سيارات الباص الثلاث، التي أوقفت بمحاذاة الرصيف. نظر في الغرفة الواسعة فرأى صديقه السائق أبو فايز يجلس على مقعد خشبي طويل، وقد لف ساقاً على ساق، وفي يده سيجارة، وفي اليد الأخرى كوب شاي كبير، فيه عرق نعنع.

ابتسم له أبو فايز بود، وقال:

– تعال اشرب.

استدار أبو سليم، أسند ظهره على جذع شجرة الصنوبر الضخمة القديمة. أخذ يجيل النظر في الشوارع المتقاطعة: لا ركاب.. لا أحد يسافر إلى القدس، لا حقائب تحملها، وتبتاع بأجرتها طعاماً للأسرة.

مرت سيارة دورية، فيها جنود يجلسون متقابلين، وبنادقهم الرشاشة القصيرة جاهزة بين أيديهم.

قال أبو سليم بصوت مرتفع:

– عشنا وشفنا. هاهم يحتلون أريحا، ويتجولون دون خوف.. سمعه صديقه السائق أبو فايز، لكنه لم يعلق. طوح بعقب السيكارة. وضع كوب

الشاي الزجاجي المضلع الكبير على الأرض، بين قدميه، وأشعل سيجارة جديدة، ونفث الدخان مع آهة مديدة في فضاء الغرفة المعتم.

خرج قاطع التذاكر من المرحاض، أخذ يجفف يديه ووجهه بمنديل قماشي مطرز الحواف.

دخل في القفص الفولاذي، جلس، وارتشف بقايا الشاي المنعنع، راقب أبو فايز الذي كان شارداً في صمته.

ـ لا أحد يسافر إلى القدس يا (أبا فايز). شهر وأكثر ونحن على هذا الحال.

لكن أبا فايز لم يجب، ولم يشارك ولو بتعليق صغير، فتضايق قاطع التذاكر، وصفن يفكر في أحوال الدنيا، تذكر السائقين الذين كانوا يعملون على الخط، وأسف لرحيلهم، مع الناس الذين لاذوا بالفرار إلى شرقي الأردن.

كانوا يأخذون ويعطون معه في الحديث.. لكن أبا فايز.. أعوذ بالله، إنه لا يفتح فمه إلا نادراً، يا رجل أتزن كلامك بالذهب؟ ماذا تظن نفسك يا رجل؟ أخذ يتأمله كأنما يراه لأول مرة: رجل غامض غريب، ذات مرة اتهمه بعض الناس بأنه مخبر، انتشرت الشائعة، لكنه لم يأبه، ولم يتغير. مرة روى عنه أحد السائقين أنه كان في مصر، وأنه ـ أي أبو فايز ـ كان يعمل مع الإنكليز في المعسكرات وهناك تعرف بالمغنية "أسمهان"، ثم عمل عندها سائقاً وقتلها.

حين تناهت هذه الحكاية إلى أبي فايز لم ينفها. فقط ابتسم ابتسامته الصغيرة، وهز كتفيه كأن الأمر لا يعنيه.

أما صاحبه أبو سليم العتال، فقال: يا مصطفى ماذا تريدون من الرجل. لقد تعب كثيراً في هذه الدنيا، أنا أعرفه، أنا علمته السواقة في حيفا، لقد فقد زوجته وأطفاله في الحرب، وظل وحيداً حزيناً.. إيه، ألا تفهمون، أتريدونه أن يرقص فرحاً، أنه لا يحب الثرثرة.

أنا خسرت ذراعي فانسدت الدنيا في وجهي، أما هو.. ليكن الله بعونه، لقد شاف الكثير.. وتحمل قلبه الكثير.. أبو فايز ذهب، ذهب أصلي.

تذكر مصطفى عايش حواره مع أبو سليم ورنت في رأسه كلمات أبو سليم: أبو فايز ذهب، ذهب أصلي، لقد شاف الكثير.. نادى مصطفى عايش أبو سليم: لكن أبا سليم ظل يسند ظهره إلى جذع الشجرة الصنوبر. رأى أبو سليم شاباً وفتاة، يأتيان من عطفة الشارع، راقبهما، إنهما بلا حقائب.

مد الشاب رأسه في الغرفة وسأل:

– ها، ألا توجد سيارة للقدس.

أومأ أبو فايز برأسه إلى مصطفى عايش، قاطع التذاكر.

–توجد سيارة.

قال قاطع التذاكر، وأخرج دفتر التذاكر من الدرج، وضع الشاب النقود، ثم أخذ التذكرتين، وخرج. نفخ أبو سليم بغلّ، جاء محمد فايق، بقامته القصيرة، وبطنه المنتفخة المتكورة فارداً ذراعيه، وأمسك بضلفتي الباب وضغط جسمه إلى الأمام. رمقه أبو فايز بطرف عينه ثم أخرج نظارته وأخذ يمسح زجاجها.

من يحضر لنا الصحف من القدس يا شباب؟

سأل محمد فايق:

قال مصطفى عايش:

– اطلب من "أبو فايز" أن يحضرها لك معه.

التفت إلى "أبو فايز" وسأله على مضض:

– ألا تحضرها لنا، أخي أبو فايز.

حرك أبو فايز رأسه إلى أعلى ببطء.

أرخى محمد فايق ذراعيه ببطء، وهو يكز على أسنانه مغيظاً، وعلق بحنق:

– مش مهم، بندبرها بأي وسيلة.

ثم خاطب مصطفى عايش:

– ما رأيك تسمعنا من مذياعك أغنية حلوة لاسمهان. التقطعها أبو فايز: .. هذا الغبي يصدق حكاية قتل اسمهان. أمس كان مراسلاً لصحيفة أردنية، واليوم يريد أن يدبر نفسه مع جريدة إسرائيلية.

دخل شاب، وأخذ تذكرة، ثم صعد في سيارة الباص.

قال مصطفى عايش لأبي فايز:

– ما رأيك تتوكل على الله أخي أبو فايز، ربما تجد في طريقك بعض الركاب.

هدر موتور السيارة، فارتج بدنها المعدني، وأخذ فولاذها العتيق يصطك، ثم أن "أبو فايز" ضغط أكثر على دعسة البنزين، فدرجت السيارة بهدوء. مد أبو فايز رأسه في الشباك:

– أبو سليم، خاطرك.

قال أبو سليم بصوت أجش وقور:

– مهونة أبو فايز.

ثم أنه قرفص لصق الشجرة، وراقب السيارة وهي تبتعد على الإسفلت الذي يشق أريحا إلى القدس. تجاوزت السيارة الجسر، وصعدت الدرب، وانعطفت قليلاً، فلاح السجن الأصفر الجدران، الذي ابتناه الإنكليز أيام زمان، والذي كان مقراً لقائد المقاطعة الأردني، ثم أضحى مقراً للحاكم العسكري الإسرائيلي.

اندفع عسكري من البوابة الخارجية، لوح بسلاحه، وصرخ:

– قف.. قف.

أوقف أبو فايز السيارة.

سأل وهو يلهث:

- كدس.

قال أبو فايز بهدوء:

- القدس.

صعد، تطلع في السيارة راح في الممر بين المقاعد، وجلس في الخلف.

الهواء الساخن يندفع من النوافذ، شعر البنت يتطاير، ويدغدغ عنق الشاب وجبينه وأنفه، فيبتسم ويميل برأسه ويهمس لها، فتبتسم، نظراتهما تذوب وجداً، وهما لا يكفان عن الهمس، والابتسام، كان الشاب الآخر يتطلع إلى جبال "مؤاب" البعيدة، وبيارات البرتقال، وأشجار النخيل الفارعة، وسطح البحر الميت، الأزرق، الساكن.

وانتشى يغني بصوت خافت:

يا دار يا دار لو عدنا كما كنا... لا طليكي يا دار بعد الشيد بالحنا

ها هي بيوت "عقبة جبر"، المبنية من الطين الممزوج بالتبن، وذاك مبنى مدير المخيم، يغرق وسط أعواد البوص الخضراء وأشجار الكينا والصنوبر.

تنهد الشاب وهو يراقب البيوت، وشوارع المخيم المهجور، أخرج الشاب سيكارة فسألته فتاته:

- أضروري أن تدخن

تنهد وعيناه تراقبان البيوت الطينية، وظل صامتاً، وسكتت الفتاة، وكفت عن الابتسام.

صرخ العسكري ورشاشه بين يديه، وفوهتها باتجاه السائق، مشيراً إلى العبارة المكتوبة على جدار الباص:

– شفير، شو، مكتوب هون؟.

لم يرد أبو فايز، فصرخ:

– سألتك شو مكتوب هون.

قالت البنت للشاب، متسائلة: أنه يتحدث بالعربية.

أجابها الشاب:

– ربما كان من اليهود الذين عاشوا بين العرب، أو من حراس السجون، الذين يحتكون بالسجناء العرب.

سأله أبو زياد مستنفزاً:

– ليش.

قال العسكري مكتوب ممنوع تدخين.

رد أبو زياد:

– نحن أحرار، ندخن، أو لا ندخن، نحن كتبنا هذا الكلام، ونحن أحرار في تنفيذه أو إهماله.

تقدم العسكري بين المقاعد، في الممر، وتوقف وراء أبو زياد، وصب نظرات متغطرسة على رؤوس الجميع:

– مكتوب ممنوع تدخين، يعني ممنوع تدخين.

قال أبو زياد بنفاذ صبر:

– قلتلك هذا كلام يخصنا، أنت ما علاقتك.

أخذ العسكري ينفخ بغل:

– سوف أوقفك عند مخفر خان أحمر، هناك سأريكم.

ترك أبو فايز الإسفلت، مال بالسيارة على الرصيف ثم بقوة، أوقف السيارة، فارتجت واصطدم رأس الفتاة بحديد المعقد أمامها، واختل توازن العسكري فتطوح بين المقاعد، وقفز أبو فايز وقد انتضى موساه وإنهال طعناً في جسد العسكري الذي أخذته المفاجأة، وصعقه الألم.

عاد أبو فايز إلى المقود، وتحركت السيارة بعنف، ثم مالت على طريق ترابي، وراحت مخلفة وراءها زوبعة من غبار كثيف.

قالت الفتاة:

– أنا خائفة.

قال أبو فايز:

لا تخافوا، لا تتحركوا من مقاعدكم، ولا تلمسوا شيئاً، فقط إذا كنتم قد تلوثتم بدمه، نظفوا أنفسكم.. أنا أتحمل المسؤولية وحدي، لن

أورطكم، أبداً. توقفت السيارة أما بيارة "بهاء الدين بك". أطلق أبو فايز زمور السيارة، فجاء رجل قصير أسمر من بين الأشجار، أشار له أبو فايز داخل الباص، فقفز بسرعة، حملا الجثة، ثم راحا معاً، بين الأشجار، وبعد قليل عادا ومعهما تنكتان مليئتان بالماء، أخذا ينظفان أرض الباص، والمقاعد، وإذ انتهيا، حمل العجوز البندقية، وهبط، وتوقف أمام السيارة.

جلس أبو فايز وراء المقود، ثم تحركت السيارة ببطء على الدرب الترابي، لوح للعجوز بيده، فابتسم العجوز له، ثم راح مبتعداً على الطريق الترابي الصاعد بين التلال. تطلع أبو فايز في المرآة أمامه، وسأل:

- شباب، هل رأيتم شيئاً.

فقال الشابان بصوت واحد:

- لا، لم نر شيئاً.

أما البنت فتساءلت: عن أي شيء تسألنا. أخذ الشابان يدخنان، فعاد أبو فايز يتطلع في المرآة، وقد شد جذعه:

- شباب، ممنوع التدخين.

ظنا أنه يمزح، لكن ملامحه كانت جادة، وعيناه تتطلعان أمامه باهتمام ليراقب الحفر، والحجارة الناتئة، فألقيا سيكارتيهما من الشبابيك. أخذ الهواء الساخن المغبر يتدفق في الباص، انعطفت السيارة، واتجهت نحو الطريق الإسفلتي منطلقة إلى القدس.



غريب في المدينة

دفع حساب الفندق وخرج إلى الشارع المزدحم، تسكع طويلاً. جلس في مقهى شعبي، ثم تناول غداءه في مطعم العروبة، الذي تعرف إليه في مرات سابقة. راقب الإعلانات الهائلة التي تحمل صور ممثلي السينما.. مر أمام مسرح شوشو.

آه يا بلدنا.. جوعانين..

خرج من صالة السينما عند العصر، كان فيلم كاراتيه مليئاً بالتهويل.. اتجه إلى البحر. جاءت نسمات رطبة فغذ السير. فك أزرار قميصه، وتلمس شعر صدره الخشن، وتشمم رائحة عرقه، أنا بحاجة إلى حمام ساخن.. صاحب الفندق كذاب. قال يوجد دش ساخن وبارد.. ثم لا ساخن ولا بارد. اللعنة. وصل نهاية الشارع. جاء البحر أزرق عريضاً.. وبلا نهاية...

قطع الشارع الإسفلتي إلى الرصيف. رأى بعض الناس يلوون رؤوسهم متطلعين إلى السماء وفجأة دوى انفجار هائل وانفلشت الخطوط البيض وراء الطائرات المعادية. استند إلى الحاجز الحديدي. أرسل نظرات طويلة. أشعل سيكارة. امتص منها بعض الأنفاس، ثم قذف بها إلى البحر. ارتعشت قليلاً في الفراغ، مع الهواء الآتي بين الكتلتين الترابيتين المزروعتين في البحر، ثم تلاشت في الزبد.

تناهت أصوات صافرات الإنذار إلى مسامعه. أطلقت إحدى السيارات صريفاً وهي تلف المنعطف الحاد.

حرك قدميه ببطء، ووجهه إلى البحر.

سمع بائع الذرة المشوية:

- لماذا لا يطلقون عليها المدافع بدل صفارات الإنذار؟.

عادت الصافرات تطلق أصواتها الحادة.

علق بائع الذرة:

- راحوا، رجعوا بالسلامة.

تدفقت رائحة الذرة المشوية إلى رئتيه. جلس على مقعد حجري. أخذ يراقب العابرين والسيارات، والباعة، والزوارق التي تلعب في عرض البحر.. بدأ قرص الشمس يحمر وهو يسقط في الأفق الرمادي وراء البحر. بدت الشمس كأنها تسقط في الماء. أصبحت قبالته، كأنها ستقف على حافتها الدائرية، وأشعتها الحمراء، الصفراء تنحل في الماء، وتنسرح على الأمواج. أصابعه تلتقط الحصى وتقذف به في الزبد الفائر الصاخب.

- معك ولعه.

تنبه على الصوت. رأى شاباً يقف جواره وفي فمه سيكارة غير مشتعلة. أخرج الولاعة، أشعل له السيكارة قال الشاب:

-الحياة حلوة انظر إلى الشمس كأنها من نحاس. قبل قليل كانت كأنها من فضة، أحياناً كأنها من ذهب. وراحت الشمس وراء الأفق، وبدأت بعض النجوم ترش أنوارها في غبش المساء، قال الشاب:

- يجب أن لا تقترب كثيراً من الحافة، هنا ينتحر بعض الناس.. يغوصون هناك في الزبد ويتمزق لحمهم على أسنة الصخور الحادة المشرئبة تحت الماء.. أنهم يضيعون في أجواف الأسماك.

قاطعه بابتسامة:

- ولكني لا أريد الانتحار، كنت أراقب الشمس والبحر والزوارق..

قال الشاب:

- أرجو أن لا أكون قد ضايقتك، يبدو أنك غريب.

أومأ له موافقاً.

ابتسم الشاب وقال:

- سعيدة..

ثم راح. ظل وحيداً مع أضواء النجوم البعيدة وهدير البحر، كانت الأمواج تضرب وتضرب بعنف كأنما توشك أن تفجر الأرض تحت أبنية بيروت. أطلقت السيارات العابرة صريفاً، فوقف واستدار، والتمعت أضواء النيونات في عينيه.

كانت تهز جسدها بإغراء، وتحرك حقيبة يدها حركات واسعة، نظر إلى وجهها لحظة فالتقطت نظراته..

- لو معك سيارة.

نظر إلى عينيها الكحيلتين وإلى شعرها "هذه باروكة وليس شعرها" قالت:

– أعندك بيت؟

ابتسم.

سألته بدلال:

– ألا أعجبك؟ إذا عندك سأذهب معك في سيارة سرفيس. قال لها: أنا غريب لا بيت ولا سيارة.

قالت له: وأنا غريبة. لست من بيروت.

رأت ظلال كآبة في عينيه.

– سأرضيك.

– قلت لك أنا غريب فعلاً.

قالت له: وأنا.

سألها: أليس لك بيت؟

نظرت إليه وابتسامة ساخرة على زاوية فمها: لا.

قال لها: وأنا لا بيت لي.

وكأنه يحكي لنفسه.

– كان لي بيت في أريحا.. وضاع.. ثم ابتنى أهلي بيتاً في عمان.. ظلوا هناك، وأنا.. هنا مبعد عنهم.

رآها تبتعد عنه، وحقيبتها تتأرجح إلى جوارها راسمة نصف دائرة.

أوقف سيارة تكسي. سأله السائق:

- إلى أين؟
- الجامعة العربية.

أخذ يراقب الأبنية والشوارع والمارة، علّه يلمح وجهاً يعرفه. سار في شارع فرعي وراء سجن الرمل، دخل إلى بناية "أبو خليل" صعد به الاسانسير إلى الدور السادس. نظر إلى الباب، فرأى أن الورقة التي تركها بالأمس قد اختفت، "إذا لا بد أنه هنا، ذلك الصديق اللعين" ضغط على الجرس فتجاوب الرنين في الداخل. عاد وضغط على الزر فانفتح الباب، ومد الصديق رأسه، ونصفه الأعلى عار، ونصفه الأسفل في بنطال بيجامته.

- غير معقول ظننت أنك عدت إلى القاعدة..

تعانقا. اقتاده الصديق من ذراعه:

- سأعرفك بصديقتي.. هالة. أتت من غرفة النوم. كانت تحمل في يدها اليسرى مجلة أجنبية مصورة، مدت له يداً لينة وحيته بود.

- هذا صديقي يوسف.. حكيت لك عنه.. تربينا معاً في أريحا منذ طفولتنا.. وهاجرنا إلى عمان معاً.. قاتلنا معاً.. ثم هاأنذا في بيروت.. وهو هناك في الجنوب..

أضاف:

- أهلاً يوسف والله اشتقنا لك يا رجل. كلما سمعت عن هجوم قلقت عليك..

رد عليه مؤنباً:

– لذلك جئت للاطمئنان علينا.. كم مرة وعدت بالزيارة. ضربه على ظهره.

– الآن ستشرب قهوة مسائية مضبوطة.

سأله يوسف:

– هل ستتزوج يا أمين؟

– اسكت وإلا فطنتها على الزواج، أتزوج؟.. وأين نحيا؟ وكيف؟ كل يوم في بلد.. ثم ها نحن نحيا أفضل من الزواج.. آ، على فكرة وصلتني رسالتك التي ألصقتها على الباب ولكن متى وصلت؟

وأضاف قبل أن يسمع جواب يوسف:

– عدت عند الفجر أيها العزيز فنزعتها عن الباب.. ونمت.

سأله يوسف:

– ألم تأت رسائل من أهلي..

قال أمين:

– لا، حتى ولا من أهلي.. أنت تعرف ربما يخافون، هناك. سكتنا قليلاً، جاءت هالة تحمل صينية القهوة والبخار يتصاعد من "الركوة"، قالت:

– أحب أن أصب القهوة كما يفعلون في المقاهي.

قال أمين موجهاً حديثه لهالة:

- سألني يوسف أن كنا سنتزوج.

انتفضت بانفعال مسرحي:

- وماذا قلت له؟

تلعثم مسرحياً..

قلت له يا عزيزتي: أن الاقتران بهالة شرف لا أطمح إليه. ضحكت هالة هازة جسدها، ثم أحنت جذعها وقبلت أمين في جبينه.

نظر يوسف إلى الحقائب المرصوصة على السرير.

- حقائب..؟

قال أمين:

- أنا مسافر. هناك دورة صحفية لبضعة أشهر.

سكت قليلاً.

- الليلة حوالي الساعة الثانية عشرة.. ستقلع بنا الطائرة. وقف يوسف وأعلن:

والآن أيها الصديق سأعانقك..

-لماذا؟ ابق معنا. نم هنا، ستعود هالة بعد وداعي في المطار لتنام هنا..

ألح يوسف فتعانقا ثم سلم على هالة وخطا بضع خطوات حتى الباب. تطلع إلى هالة وقال لها:

– لا تتركيه يفلت منك.. حين يعود اتصلي بالمأذون فوراً. ضحكوا جميعاً ثم اختفى في جوف (الأسانسير) وهبط.

دخل إلى المطعم الأخضر، عند الجامعة طلب من الفتى الصغير أن يحضر له نبيذاً "هناك لا نساء ولا نبيذ" فكر في كتابة رسالة إلى الأهل. ماذا يقول لهم؟ نفس الكلام، أنا بخير، صحتي جيدة.

لن يكتب لهم. إنه حزين وإنه يكره الموت والطائرات الإسرائيلية.. وآلاف الأشياء الرديئة. هل أكتب لهم إني بكيت أمس في الفندق؟

أنا الذي واجه الموت عشرات المرات وخاف دون أن يبكي. هجمت عليه الوحشة. شرب الكوب الأول بسرعة فدب خدر لذيذ في رأسه وبدنه.

كرع كأساً أخر، ومضغ بعض اللقمات ثم مضغ حبة زيتون أسود. دخل شاب ملتح يتأبط منكبي فتاة متهدلة الشعر، طفلية الملامح.

جاء الولد الصغير سأله:

– ولكن أين والدك أيها الصغير؟

قال الولد حزيناً:

–مات قبل شهر..

–رحمه الله. كان رجلاً طيباً.. هل تذكرني؟

أومأ الصغير برأسه:

سأله يوسف فاتورة الحساب..

أومأ الصغير باتجاه أمه.

كانت المرأة ترتدي السواد، وتحيك الصوف وراء الطاولة راح إليها، قالت له وأصابعها تعمل في نسج الصوف.

-تسع ليرات ونصف.

أخذ سيارة إلى ساحة البرج وهناك سمع صراخ عامل الكراج: واحد.. واحد بس.. صور، صيدا.. انحشر مع الركاب في المقعد الخلفي فانطلقت السيارة مخلفة ساحة "البرج".

كان يوسف يفكر: ولكن ماذا لو سألني الرفاق عن سر عودتي قبل أن تنتهي الإجازة؟ ربما يدهشون لعودتي السريعة . ثم أمال رأسه على كتفه وهو يفكر: لا لن يندهشوا.. سيعرفون، فهم أيضاً يعودون قبل أن تنتهي إجازاتهم.

هديل الحجل

بين أشجار السرو، والبلوط، والصنوبر، وعلى المسربة الضيقة سارا معاً حتى وصلا قمة التلة الكبيرة، فتوقفا، وأخذا أنفاساً عميقة، أصغيا لهديل الحجل في شعاب الوادي.

قالت:

-أحب الحجل.

استند إلى جذع ضخم وقال وهو يلهث:

-لكنه حزين، ودائماً يشعر بالخطر.

تمددت قربه. أخذت تنكش الأرض المكسوة بالأوراق الذابلة. ظلا ساكتين برهة. مدت يدها إلى رأسه. داعبت شعره الأسود الغزير، وقالت بالعربية:

– هجل.

ضحك، وضحكت.

طوى أصابعها، هزت رأسها، فارتعش شعرها الأشقر حول رأسها المستديرة، فبان جبينها الذي لوحته الشمس.

قالت:

أنت أبيض وأسمر. مزيج من إفريقيا وآسيا.

سألها:

– وأنت؟

صمتت قليلاً. نكثت أوراق الصنوبر المدببة، المتراكمة بين قدميها. رفعت رأسها، تطلعت بين الأغصان المتهدلة كأنها لا تراه. تكلمت كأنما تتحدث مع نفسها:

– أنا أبحث عن لوني، هاأنذا آخذ شيئاً من لون الشرق. لقد أتيت إليكم لأحدد موقعي تماماً في هذا العالم الواسع. ضغط على أصابعها، فابتسمت، أشعلت سيكارتين، أعطته واحدة، وأخذت تدخن الأخرى، قالت:

– لقد تعلمت هذه العادة منكم، اكتشفت كم هو رائع أن يشعل لك أحدهم سيكارة، ويقدمها لك. إنه يضع فيها أنفاسه ووده. مر بعض عناصر الدورة الجديدة. كانوا يحملون الماء والطعام حيوهما، كانت ترد.

– آلا. مرهبا.

سألها:

–هل جعت؟

قالت بالعربية:

– وهوش.

قال لها:

– الشباب يقولون إنهم وحوش، كي يستطيعوا التغلب على وحشية الحرب. انظري حواليك: هذه الطبيعة مدهشة.. إنها الآن معسكر. قبل أن نأتي كانت مجرد طبيعة مهملة، مهجورة. لقد حفرنا الصخر، وأخرجنا الماء، وتآخينا مع الطيور. ذات يوم ستكون هذه الأمكنة حدائق للعشاق.

تنبها على دوي الطائرات، ونداءات الشباب: انتشار، رأيا الشباب يتقافزون بين الأشجار، ويتوارون في الكهوف، وتحت الصخور الضخمة.

أخذت تتطلع بين الأغصان نحو السماء. أشار إليها بإصبعه، قالت:

– إني أراها.

سألها:

– أخائفة أنت؟

قالت بالعربية:

– شوي.

ارتجت الأرض. قالت:

– إنهم يقصفون.

قال:

– يقصفون القواعد القريبة من تلال الكرامة.

سارا هابطين على المسربة الضيقة، بين الأشجار.

قال:

ستكتبين لي.

توقفت. نظرت في عينيه، قالت:

– عدني أن لا تحزن كثيراً.

– أعدك، ولكن ستكتبين لي كثيراً.

– ليس كثيراً. كل نصف شهر، ربما. باستثناء أيام السجن. مر على شعرها القصير الأشقر، بأصابعه. تحسس جبينها الذي لوحته الشمس. ابتسمت، قالت:

– لقد اكتسبت هذا اللون، إنه لن يزول. وأنا أحب أن يبقى.

التفت عيونهما. ارتجت الأرض من جديد. أطلقت المدفعية المضادة للطائرات. قالت:

– القصف يقترب

اقترب رأساهما.. اقتربا كثيراً.. كثيراً جداً.

***

مضيا يهبطان بين الأشجار، أخذت تتعلق بالأغصان، وتقفز، وتدور حول الجذوع الضخمة. صدرها يعلو ويهبط. توقفت وقالت:

– سترسل لي الثوب الذي ستطرزه أختك شفيكه – وبلغ والدتك إعجابي بها.

قالت:

– بات.. ابقي معنا، وصيري فلسطينية.

– لقد كنت مع الزنوج زنجية. وها أنذا معكم فلسطينية. ولكن دون أن أتخلى عن بلدي اللعين: أميركا. لقد حدثتك كيف زجوا بي في السجن أكثر من عام، وأخرجوني مصابة بالسل، وببعض الأمراض الإضافية. ثلاثة أعوام وأنا أكابد المرض، حتى شفيت. ومع كل، هاأنذا حية. إنني معكم. إذا زجوا بي في السجن، فأظن أنني لن أخرج حية.

***

سألها:

– والآن؟

عانقته.

– إلى اللقاء. هيا بنا، إنهم ينتظروننا، سنتناول الطعام معاً، ثم ندخل.

أقلتهم سيارة اللاندروفر. صديقها، وصديقتها، وهي.

نقلتهم إلى "جرش"، ومن هناك، واصلوا الرحلة إلى دمشق، فبيروت، فبلدها اللعين – كما كانت تقول – أميركا.

***

حفر المفوض السياسي "أبو خالد" أمين اسمها على الجذع تحت خارطة فلسطين. أصغى لهديل الحجل، جاءت الطائرات، فتذكرها كثيراً، وحزن كثيراً، كثيراً جداً، وانتظر الرسائل، ولكن..

***

جاءت سيارة اللاندروفر تتمايل على الطريق الترابي الوعر، والغبار ينعقد خلفها. توقفت عند نبعة الماء، فقفز الشباب من الصندوق، وأخذوا ينقلون الطعام، والذخيرة، والأدوية. رفع السائق "أبو أحمد" غطاء الموتور، وأخذ يتفحص الأسلاك، والبطارية رفع أبو أحمد صوته، حين رأى أبو خالد:

- توجد رسائل كثيرة للشباب، لكن لست أدري إن كانت لك رسالة بينها.

أدرك "أبو خالد" أمين من لهجة أبو أحمد أن له رسالة.

- أبو أحمد، ألم تمر ببيتنا في مخيم البقعة.

تجاهل أبو أحمد سؤاله.

- البلاتين تعبان. لذلك السيارة تقطع.

أدار "أبو خالد" ظهره، تظاهر بأنه يصعد. ناداه أبو أحمد:

- لك رسالة من أميركا يا خال.

علق أحد الشباب:

- أبو خالد، عاشق أممي. لقد حقق العالمية في الحب.

رد أبو خالد مازحاً:

- الحق على الذي علمكم هذه المصطلحات.

فض الرسالة وقرأ:

– عزيزي أمين:

أنا بخير. ما زلت انتظر الثوب الفلسطيني من شفيكه. أتذكر صوت الحجل. سلامي لوالدتك ولشفيكه. سأكتب لك بانتظام. التقي هنا ببعض الطلبة العرب. قمنا بمظاهرة رداً على مظاهرة صهيونية.

صديقتك المخلصة (بات)

***

حصل على إجازة، فذهب مع أبي أحمد إلى مخيم البقعة. قالت له أمه وهي تحتضنه:

– أطلت الغيبة.

أخته شفيقة قبلت جبينه.

قالت أمه:

–جاءت رسالة من والدك.

أحضرت الرسالة من بين طيات الفراش. أخذ يقرأ:

ولدي العزيز أمين،

دراستك الجامعية وفرغت منها. لا تريد العمل هنا في الكويت، أنت حر، ولكن أن لا تتزوج فهذا الأمر يقلقني، ويشغل بال والدتك، أيضاً. أريد أن أعود لأفرح بك، مع الأهل والأصحاب، ما رأيك؟

بلا وعي قال:

- لا.

سألته أمه:

- مع من تتكلم؟

قال:

- كنت أفكر.

علقت الأم:

- أعانكم الله على زمنكم. واحدكم في عز شبابه، ومع ذلك تكلمون أنفسكم.

فتحت شفيقة صندوقها الخشبي، وأخرجت ثوباً أنيقاً، فردته أمامه، وقالت:

- هذا لصديقتك الأميركية.

عانقها أمين.

- أنت يا شفيقة ملكة التطريز.

علقت الأم:

- يا حسرتي، ولكن ليس لها حظ.

قال أمين:

- لا تقولي هذا الكلام. هناك أكثر من شاب يتمنى الاقتران بها..

ابتسمت شفيقة. غضت نظرها، وسألته:

- وأنت يا أخي، متى تتزوج؟

رد متلعثماً:

- أنا.. أنا.. أنا يا شفيقة، مشواري صعب، وطويل.

***

ضغط أبو أحمد على الزامور، فهب الشباب من تحت الأشجار، واندفعوا يتراكضون صوبه. تخاطفوا الرسائل، وأفرغوا السيارة. فض أبو خالد الرسالة وقرأ:

السيد أمين:

أشكرك على الثوب الجميل، الذي ا نتظرته (بات) طويلاً. إنني أعرف عنكم الشيء الكثير. لقد عادت (بات) من بلادكم سعيدة، وبصحة جيدة.. إنني آسفة إذ أخبرك بأنها ماتت في السجن.

إذا سمحت سأحتفظ بالثوب من أجل ذكراها، وصداقتها لكم، التي دفعت حياتها من أجلها بصمت ويقين.

والدة بات

ارتخت ركبتاه. سار حتى بلغ الشجرة التي كانا يجلسان تحتها. تناهى إلى سمعه نداء الشباب: انتشار.

رفع رأسه، وفي ثوان كانت القذائف تنصب على الأشجار، والحرائق تندلع. ارتجت الأرض، كأنها توشك أن تخرج أثقالها.

***

تـوارت الطـائرات، تأججـت النـار، وتكـاثف الـدخان، وانعقـد فـي الفضـاء، تراكض الشباب لتفقد رفاقهم. وجدوا "أبو خالد أمين" جريحاً، والدم ينزف من كتفه وظهره.

كدسوا الجرحى في صندوق السيارة اللاندروفر. انطلق أبو أحمد على الطريق الترابي الوعر. عند نهاية الطريق الترابي أوقف السيارة، ونزل ليطمئن على الجرحى. أبو خالد أمين يتشبث بالعارضة، عيناه مغمضتان، سمع صوت أبو أحمد:

– بسيطة أبو خالد، دقائق، ونصل المستشفى في جرش. فتح أبو خالد أمين عينيه المرهقتين، أصغى، فارتفع نشيد الحجل، وسط الدخان والنار.

ثـم ارتجت السيارة، وانطلقت على الطريق المعبد، بينما أبو خالد يبذل جهداً خارقاً كي لا يفقد وعيه.

عازف الأرغول

متى رأيته، وأين، في المرّة الأولى؟

لا أستطيع تحديد الزمان والمكان، ولكنني تعلّقت به منذ سمعته يعزف على أرغوله. يخرج قصبات أرغوله من جيب صدر، ويدخلها المبسمين الرقيقين في القصبتين المشدودتين لبعضهما بخيط غليظ، ويأخذ في العزف دائراً حول نفسه كما لو أنه درويش في الحضرة، ثمّ يلوّح بيده اليسرى وأصابع يده اليمنى تلعب على ثقوب أرغوله، وكأن أصابع يده تنادي دبّيكة يتخيلهم، أو يستدعيهم من الذاكرة، ثمّ ينهي وصلته بالجلوس صامتاً وفي عينيه دمعات تمتزج بطيف ابتسامة.

يدسّ يده في جيبه، ويفتح قبضته فإذا بها مليئة بكمشة ملبّس على نعنع. يوزّع الحبّات على الحضور، ويسرّب واحدة في فمه الأدرد، هازّاً رأسه مع تنهيدة، ثمّ يطوي جسده ويغمض عينيه، ويستند بظهره إلى الجدار إن كنّا نتحلّق حوله في الشارع، أو يريحه على مسند الكرسي إن كان في أحد المكاتب، ماداً ساقيه قليلاً، مطقطقاً عظامه، متنهداً، ثمّ يغرق في الصمت آخذاً قسطاً من الراحة بعد أن نفخ أنغامه في أرغوله، وابسط (الشباب) ورقّص بعض المولعين بالدبكة، وانتزع إعجاب حتى مرافقيهم الذين كانوا فدائيين في (القواعد) قبل أن يؤتى بهم إلى (الفاكهاني) ليحرسوهم، ويقضوا حاجات أسرهم البيتيّة.

سمعته يقول بأنه من مخيّم (السبينة) القريب من دمشق، وأنه يعبر الحدود السوريّة اللبنانيّة عن الطريق العسكري . طريق الفدائيين . باحثاً عن ابنه الذي اختفى فجأةً، ووصلهم خبر التحاقه بالفدائيين في قواعد جنوب لبنان.

هو أبو رمزي ولا شيء آخر، ولذا لو فكّرت في سؤاله عن بلده الأصلي، واسم عائلته فإنه يتناوم، أو يمدّ أصابعه البنيّة الغامقة المكرمشة الجلد، ويعرض عليك حبّة حلو منعنعة تعطّر بها فمك، أو قد يعنّ على باله إن كان مزاجه رائقاً أن يلتقم مبسمي أرغوله ويأخذ في التقسيم الترتيلي الذي يحرك المشاعر فيشجي، ويهيّج ذكريات الحاضرين، منتزعاً من صدورهم الآهات، والدهشة من عيونهم الشاخصة إلى أصابعه الرشيقة ولغديه المنفوخين.

هو اليوم هنا في بيروت، تراه أمام بناية (الإعلام الموحّد)، ربما يتبادل الحديث الفكه مع (ماجد أبو شرار)، أو يتوجّه إلى مقهى (أم نبيل) ليأخذ فنجان قهوة، مستجيباً لدعوات ملحاحة من مثقفين لا يخفون استطرافهم لشخصه، وحنينهم لآباء يشبهونه، لم يروهم منذ سنين، رافضاً بتاتاً أن يعزف وهو في المقهى، رغم الرجاءات والإلحاحات من شباب فلسطينيين وبعض الضيوف الأجانب الذين يحضرون من بلاد بعيدة للتعبير عن تضامنهم مع (الثورة الفلسطينية).

صديقي رسمي أبو علي – وهو قاصّ فلسطيني، وشاعر قصيدة نثر– يعلّق وهو يميل رأسه:

– هذا العجوز أفّاق. إنه يتسلى. أنا لا أصدّق أن له ابناً فدائياً، وأنه تائه عنه ولا يعرف شيئاً عنه، وأنه يبحث عنه في قواعد الفدائيين:

أردّ عليه عادةً:

– ولكنه لا يأخذ مالاً على عزفه، ولا يطلب مساعدةً ماليّةً من أحد، و.. لم يسجّل ابنه في مؤسسة أبناء الشهداء..

– لأنه لا ابن له استشهد.

– ربما ما زال ابنه حيّاً. الرجل يعيش على الأمل.. أتنفر منه يا صاح؟!

أسأله بشيء من الفصحى التي يميل للتحدّث بها أحياناً، سخريةً، أو تعمّقاً، أو كما نقول: تثاقفاً...

أغمض رسمي عينيه كما يفعل عادة عندما يتريّث في التعبير عن فكرة راودت عقله:

–إنه يتسلّى، إنه موسيقي شعبي كبير، وهو إلى ذلك ساخر كبير. إنه يسخر من الدنيا، يتعامل معها كعرس عابر، فلسطينيين دائمين. إنه رجل يعرف كيف يكسر الملل من الحياة..

–يمكنه أن يتسلّى في بيته، أو في الأعراس، ويحصل على شيء من المال يعين به نفسه على مشقّة الحياة!

هاهي سيّارة فدائيّة تظهر فجأة قادمة من دوّار الكولا. يلوّح له شاب يجلس بجوار السائق، ويدعوه للذهاب معه إلى (صيدا)، فيهبّ أبو رمزي قبل أن يكمل فنجان قهوته، مثيراً ضحك رسمي وتعليقاته الطريفة.

يعلّق رسمي عليه وهو يركض إلى السيّارة العسكريّة:

– جاكيتته لا تتغيّر، واسعة وبالية ونظيفة، وإن كنت لا أعرف متى يغسلها، يبدو أن جاكتته كانت بنيّة بخطوط بيضاء، وحالت الخطوط البيضاء إلى صفراء معتمة متماهية مع اللون البنّي الذي بهت مع الزمن. يبدو أنه يرتدي جاكتته منذ الخمسينيات، أقصد من أيّام توزيع (البقج) علينا أول الهجرة.. يا لأيّام (البقج)؟!..

يضحك مضيفاً:

– مخلوق بالي المظهر، لكنه طريف، وعزفه لا كلام عليه، أنا لم أستمع لعازف أرغول بهذه البراعة والشجن والطرب. مخلوق قديم – يتساءل رسمي: متى برأيك ولد؟! – غني الروح، لعلّه آخر عازفي الأرغول الكبار من بني جلدتنا.

– يستحقّ أن يوضع في متحف للفنون الشعبيّة، نحنّطه، ونعلّق على صدره قارمة مكتوب عليها، عازف أرغول فلسطيني من القرن العشرين، من الأسرة الأخيرة لعازفي الأرغول..

سألته مسترسلاً مع جموح خياله:

– ولكن كيف مات، وأين، وكيف بقي محتفظاً بجسده سليماً؟ أكانت ميتته طبيعيّة، أم أنه استشهد في إحدى القواعد التي قصفت بينما كان يبحث عن ابنه الفدائي الذي ترك الدراسة في جامعة دمشق –كما يدّعي هو – و..؟! رسمي: خلقت لنا مشكلة، فنحن لا نملك وطناً، فمن أين لنا أن نؤسس متحفاً؟!.

كنت أجلس مع رسمي في مقهى (أم نبيل) غارقين في حالة حزن بعد قصف بعض القواعد الفدائية في الجنوب.

كنّا قلقين على العازف العجوز الذي توجّه في سيّارة عسكريّة أمس إلى القواعد في منطقة (النبطيّة) حيث وقعت الغارات، وسقط شهداء وجرحى.

كالعادة فاجأنا بظهوره على الرصيف قرب (دوّار الكولا)، وهو يعزف ماشياً حتى بلغ مكتبة (دار الطليعة)، ليتوقّف ملوّحاً بيده اليسرى بينما أصابع يده اليمنى تلعب على الثقوب منغّمة، فدائيون يحرسون المكاتب ملبّين أنغامه وتلويحات يده..

تساءل رسمي وهو يبرم وجهه على عادته عندما يبدي دهشته من أمر ما يستثيره:

–ما هذا الجنون الفلسطيني يا صاح.. أرغول في بيروت مدينة الحداثة؟!

–سرياليّة فلسطينيّة يا صاح، لا معقول فلسطيني مبهج..

تركت رسمي في المقهى وتوجهت إلى حيث أبو رمزي الذي باتت بيني وبينه مودّة منذ التقيته أوّل مرّة.

– ها، ملصت من الطائرات في الجنوب؟ إلى أين ستتجه اليوم؟!

– بعد ما انثيّع (نشيّع) الجناذات (الجنازات) لمقبرة الثهداء (الشهداء)، ثأتجه إلى الثمال (سأتجه إلى الشمال)، فإبني لو سمع عذفي (عزفي) سيحضر ولن يختبئ ويختفي عنّي. أنا لا أعترض على أن يثير (يصير) فدائياً، وكل ما في الأمر أنني أريده أن ينهي دراثته (دراسته)، ويثير

مهندثاً (ويصير مهندساً)!.. أنا غلطان يا ابن أخي؟ (هو يخاطب الكبار عمراً بابن أخي.. أمّا الشباب فيخاطبهم (يابا)، فكلّ واحد منهم عنده هو بمثابة (ابن له).

وقبل أن أجيبه، أطلقت سيّارة جيب عسكرية منبهها، ولوّح له نفس الشاب الذي رأيناه أكثر من مرّة يصطحبه من الفاكهاني إلى حيث قواعد الفدائيين في الجنوب والشمال والبقاع.

الرصيف الذي يمكّن الجالس فيه من رؤية أي عابر في الشوارع المتقاطعة حول جامعة (بيروت العربيّة):

– اكتشفت لعبة العجوز وابنه. وجدتها، وجدتها! الذي ينقّله إلى القواعد هو ابنه، هذا الذي يظهر فجأة في السيّارة العسكرية ويصطحبه معه شمالاً وجنوباً! إنهما أفّاقان.. ما رأيك في استنتاجي هذا؟!

نقّلت نظراتي بين سيارة الجيب العسكرية التي توارت، وملامح وجه رسمي المندهشة الساخرة، ووجدتني أنفجر بضحكة مجلجلة دون تعليق، منتظراً مفاجأةً جديدة من مفاجآت أبو رمزي، ووصلة من عزفه على أرغوله التي تمنح الحياة في (الفاكهاني) ألفةً وطرافةً.

ستكون خسارة لو أن أبو رمزي وجد ابنه – إن كان له ابن – واقتاده معه إلى دمشق الشام، ليعيده إلى الجامعة.

من سيعزف لنا عندئذ، ومن يرقّص الدبّيكة الشباب في الفاكهاني، ومن يثير دهشة صديقي رسمي أبو علي؟!

أبو عبد اللّه الحجل

يمشي على رؤوس أصابعه، سواء أكان ينتعل صندلاً في الصيف، أو حذاءً ثقيلاً في الشتاء. هو من إحدى قرى رام الله. مرّة يدّعي إنه من (بيت ريما)، ومرّة يقول بأنه من (دير غسّانه)، ومرّة من (أبو جخيدم)، وهو في كل حال يردّ متبرّماً على إلحاح سائله: من دنيا الله يا أخي، فكّ عنّي وخلّصني من السؤال عن أصلي وفصلي. أنا أصلي وفصلي هذا، أرغولي، ثمّ ينفخ في قصبتي الأرغول مدلّلاً على قوله...

يعيش أبو عبد الله على كرم الأجاويد، فهو لا يفاصل على إحياء ليالي الأعراس. أبو عبد الله لا حرفة له، فهو لا يزرع أرض أبيه التي أورثه إيّاها، لم يشاهد زارعاً أو حاصداً، هو على باب الله، يزهو في الصيف مع موسم الحصاد والأعراس، وعيشته مستورة فهو لا يتذمّر، ولا يطلب فوق ما يجود به الخيّرون لقاء إحيائه ليالي الأفراح التي يشيع فيها البهجة بأرغوله.

طويل القامة، عريض المنكبين، رأسه ضخم، يبدو مدوّراً عندما يخلع كوفيته. لغداه ينتفخان بالهواء حين يبدأ العزف، ووجهه يتكوّر ويحمرّ حتى يصير كالشمندرة الحمراء.

يردّد مع بدء السهرة مستفزّاً حميّة الدبّيكة:

– أنا أدوّخ الدبّيكة الشباب ولا أتعب..

عند انعقاد حلقة الدبكة يحمّي بأنغام مديدة كأنما ينادي على ناس بعيدين، يريدهم أن يسمعوا، ويهرعوا للسهر والانبساط، بالأنغام التي ترقّص الحجر، كما يردّد محبّوه إعجاباً وثناءً على عزفه.

يندمج مع المغنّي الذي يدور حوله، والدبّيكة الذين يكرجون بطيئاً، ثمّ يتحمّسون فيطيرون عالياً مستجيبين للويح يتقافز بخفّة الحمامة، يرعّش جسده كلّه كأن به مسّاً، وهو يدوّر منديله الخرزي وقد أمسك به برشاقة بين الشاهد والإبهام، في تناغم بين الجسد اللّين والمنديل المرفرف.

– ما أن أطلّ أبو عبد الله الحجل، ولحظته قريبات العريس، حتى لعلعلت الزغاريد، وانتشرت البهجة، فالعرس سيبدأ في هذه الليلة الصّيفية المقمرة، في (العبيدية) التي يفصلها عن القدس وادي النار..

من يقف على طرف البلدة يخيّل إليه أنه يستطيع ملامسة قبّة الصخرة، فالقبّة والقرية على مستوى واحد، والنظرة الأفقيّة تبدي المسافة قريبةً عكس الطريق المتعرّج الخطر في الوادي.

مدّ الفراش وتجعّص الضيوف وأقارب العريس من كبار السّن، وقد جعلوا وجوههم صوب قبّة الصخرة وسور القدس وبيوتها، ثمّ صلّوا العشاء جماعة، ومن بعد دارت أكواب الشاي المطيّب بالقرفة، في حين تحرقص الشباب متلهفين على بدء السهرة.

قال اللويح خليل الورد مخاطباً الحجل:

– الليلة للفجر على نفس واحد يا عجوز..

أخرج أبو عبد الله أرغوله، ونفخ أنغاماً قصيرة، مدوزناً نفسه وأرغوله، ثمّ أخرج مبمسي الأرغول من فمه:

– الليلة للصبح يا ولد!.. أنا الحجل، لقّبوني الحجل لأني أكرج كرجاً. أنا دوّخت أباك شيخ الدبّيكة قبلك..

– ما دام هيك: فاللفجر يا عمّ حجل، على نفس واحد بدون توقّف، لا لأرغولك ولا للدبّيكة..

– للفجر، وإذا لم أغلبكم فأنا لست الحجل.

– إذا تعبت قبلنا تعلن أنك مغلوب، وتقرّ بأنك صرت عجوزاً، وإن..

– لا تكمل يا ولد.. سأغلبكم. الليلة سيعرف الناس من الذي قلبه وصدره ما زالا شباباً..

– وإن غلبناك؟

– لا آخذ أجرتي على هذه الليلة، أو أقول لك: آخذها وأطعمكم بها كنافة بكره في القدس..

اصطفّ الدبّيكة على شكل الهلال. اللويح يطيّر المنديل الخرزي وهو يربّت بقدمه على الأرض، مع هزّ كتفيه في أعلى وأسفل، وصوت منغّم من بين أسنانه: إس سس سسس..

راحة يده اليمنى حول أذنه اليمنى، منغّماً صوته الصادح:

يا ام الشليش ويام الشليشي

جننتي المشايخ والدراويشي

تحرم علي بعدك العيشي

جرحتي قلبي وأنا ازغنونا

هزّ اللويح منكبيه، وارتفع صوته:

-هاه.. يلاّ.. اطلع..

وفجّت الزغاريد، فسهرة الليلة بدأت...

مهما قلتلك يا نفسي توبي

قلتيلي ما أقدر أنسى محبوبي

اصبر عالجفا صبر أيوبي

حتى الحبايب يعاودونا

ارتفعت أصوات الدبيكة منتشية بالغناء وأنغام الأرغول:

الله الله الله الله

- يلاّ، اطلع..

ويلاّ اطلع من اللويح تعني: طيروا، حلّقوا عالياً يا شباب..

وطارت الأقدام عن الأرض، وبدن الحجل وأنغامه امتزجت، جنّت، صعدت من الأرض إلى الفضاء، تداخلت مع ضوء القمر المكتمل الذي يذوب نوراً يملأ السماء.

أجساد قريبات وجارات العريس، والبنات اللواتي جملتهن أمهاتهن ليعرضنهن الليلة أمام أمهات عندهن عرسان، أفعمت الجوّ وأنعشته ..

الحجل يحني هامته، يدوّر جسده كالدرويش، تخفق أصابعه الرشيقة على ثقوب القصبتين، بخبرة وألفة عمر تعود إلى خمسين سنة، بدأها وهو في العاشرة، برعاية (أبو الليل) شيخ عازفي الأرغول في منطقة (رام الله).

يدور الحجل مع الدبيكة، يدوّر رأسه مع الأنغام، وقصبتا الأرغول تتجهان بفوهيتيهما إلى الأعلى كأنما يشرب بهما ذوب نور القمر، يدوّر القصبتين كأنما يدوخ مع الأنغام، يرقّص كتفيه، يهزّ خصره بلطف، يموّج رأسه، يصير في حالة وجد ونشوة وقد تخفف من عبء الجسد، ثمّ يعود إلى الأرض، فيرسل نظرات يمرّ بها على وجوه الدبّيكة، كأنما يتوعدهم متحدّياً بودّ يستفز حميّتهم: الليلة ليلتي وسترون...

الحجل يتلاعب بالدبّيكة، من (الدلعونا) إلى الطيّارة (المجنونة) إلى (الشماليّة)، يهدئ، ويسرّع أنغامه، والشباب مع انطواء ساعات الليل، يأخذ منهم التعب ببطء، ولكنهم يستمرّون بفرح عنيد، بينما المغنّي يدور حول الحجل، مهيّجاً الدبّيكة، ومستحثّاً النسوة أن لا يبخلن بزغاريدهن التي تبعث الحميّة وروح التنافس:

نزل عالدبكة اللويح الشاطر

يا لوحة إيده تشرح الخاطر

واللويح يستجيب لمديح المغني، فيخفق منديله فوق رأسه، وتهتز عضلاته الناضحة عرقاً غزيراً يبلل قمبازه الروزا الأبيض، قمباز ليالي الأفراح وحلقات الدبكة ..

وهنت الزغاريد، وفرد العجائز عباءاتهم على أجساد لفحتها نسائم آخر الليل، والقمر مال مبحراً في سماء شاحبة خفيفة.

ارتفع صوت أحد الوجهاء:

– أتعبتم الحجل يا شباب.. خذوا نفس، ارتاحوا..

لكن الحجل استدار صوب الصوت، وأخذ يحرّك قصبتي أرغوله إلى الأعلى، ويرفع حاجبيه علامة الرفض، أمّا الدبّيكة فلم يجيبوا، وتبادلوا النظر مع اللويح الذي أمعن في ترعيش جسده كأنما يقول: نحن شباب وأجسادنا لا ينال منها التعب..

أمال المغنّي رأسه وهمس في أذن الحجل، ولكن الحجل هزّ رأسه وأدار له ظهره، فوقف المغني حائراً، وأرسل نظراته إلى عيني اللويح الذي هزّ منكبيه، وكأنما يقول له: اقنع صاحبك أن يتوقف عن العزف...

من بوابة بيت العريس انسربت النسوة فالفجر اقترب، بعد أن غنين وزغردن وتبادلن الثناء على بناتهم العرايس اللواتي ينتظرن عرساناً من شباب القرية أو القرى المجاورة من قرى عرب (السواحرة).

رفع الشيخ يوسف آذان الفجر، فنهض الرجال ليتجهوا للمسجد لأداء الصلاة جماعةً.

باغت الحجل الدبّيكة بنغمات (الطيّارة) المجنونة، فارتبك اللويح والشباب، بسبب الآذان، ولأن الوهن دبّ في عضلاتهم والنعاس أخذ يثقل أجفانهم..

ارتفع صوت من بين الرجال الذين نهضوا وتحلّقوا حول الدبّيكة:

– حرام.. يكفي.. ألا تسمعون آذان الفجر.. وقت لفرحك ووقت لربّك.. يكفي.. والعقبى للعزّابية.. ويخلف عليك يا حجل...

انفضّ الدبّيكة، ونفخ الحجل قليلاً في أرغوله، ثم أخرج المبسمين من القصبتين، ونفخ فيهما حتى ينظفهما من اللعاب...

سأله أحد العجائز:

– ألا تصلّي يا حجل؟!

– طبعاً أصلّي.. كيف لا أصلّي؟! أنا أحبّ الصلاة في الهواء الطلق، أرتاح لملامسة جبيني للتراب، حتى بتّ أميّز الفرق بين روائح أراضي قرانا، ونكهات أزهارها وأشجارها وثمارها لكثرة صلاتي وركوعي عليها. سألحق بكم إلى المسجد بعد أن آخذ نفساً ينعش رئتي..

تمدد الحجل على الفراش، وأسند رأسه إلى وسادتين وضعهما فوق بعضهما، ولفّ كوفيته على رأسه ووجهه، ونام بعمق، بعمق شديد، حتى إن الشمس صارت عاليةً في السماء، بينما هو نائم تماماً، نائم فلا نفس، ولا حركة، وأرغوله ممدد على صدره كأنما ينام بعمق لصق قلب ورئتي صاحبه، بعد رفقة عمر طويلة..

***

رعد

- ١ -

هذه حكاية رعد، التي يتذاكرها أهل قريتنا الصغيرة، تلك التي احتلّت في الحرب التي باتت تعرف بحرب حزيران ٦٧، والتي لم نر فيها حرباً، اللهم إلا إذا كان ترك الأسلحة في الميدان، وفرار الجنود إلى ما سميّ بخط الدفاع الثاني يعتبر حرباً.

والدي يرحمه الله لم يهتد إلى تفسير يريح عقله وضميره وهو يصغي لكلام المذيع، الذي سمعناه حين انقطع سيل الأغاني الحماسية، ليصعقنا بنبأ انسحاب الجيش إلى خط الدفاع الثاني، في حين كنّا نتوقع أن يبشّرنا بخبر تحرير فلسطين، وهزيمة (إسرائيل) كما وعدونا..

كلبنا رغد تبع والدي دائماً كظلّه، هو أسود غطس – كما يقولون – بعينين صفراوين فسفوريتين، تلمعان في الظلام، وتحيّرانك في النهار، ذلك أنك لا تستطيع تحديد لون البريق المنبثق منهما.

مرات كثيرة رأينا أبي متمدّداً في الظل تحت العريشة ورعد يتمدّد بجواره، متحفزاً لأقل نأمة، وإن تحرك فبهدوء وحرص حتى لا يزعج أبي ويقطع عليه قيلولته.

أبي يعتني برعد، يغسّله، ويجفّف شعره الأسود بمنشفة خاصة به، يغسلها بنفسه، وينشرها في الشمس حتى تجف ثمّ يطويها بحرص، ويضعها مع ملابسه..

أمي كانت دائماً في (نقار) مع أبي بسبب رعد. مرّات تبدو وكأنها تغار من رعد، وأحياناً توحي بأنه نجس ولا يجوز أن يقترب من البني آدمين، وتمعن في الاستغراب من سلوك أبي وهي تسأله دون أن تنتظر جواباً منه:

– كيف تحسّس عليه، وتتركه يتشممك وأنت رجل تصلي؟!.

وتبرم أمي بوزها، وجسدها، وتبتعد إمعاناً في الاستنكار، وعدم استعدادها لمناقشة الأمر. أمّا الوالد فيبتسم من تحت لتحت، وهو يهمس لنا، أنا وأخوتي وأخواتي، وهو يعرف أن أذني الأم مفتوحتان لالتقاط رد فعله:

– رعد واحد من العائلة، إنه يذود عن أغنامنا، ويحمي بيتنا في غيابنا، وهو قتل أفعى وكاد يهلك عندما كنّا في الحصاد، وكانت أمكم قد تركت أختكم (معزوزة) وهي نائمة في اللفّة على أرض المارس..

يرتفع صوت أمي عنيداً مشاكساً:

– ومع ذلك فهو نجس!.

– هذا طاهر لأنني أحمّمه بيدي، وأنظّف جسده دائماً، وأغسل له فمه كل يوم، ولا أسمح له بأكل لحم الجيف.

وبعد صمت قصير، هو هدنة لالتقاط الأنفاس:

– صدقيني أنه أطهر وأشجع من بني آدمين كثيرين، وهو فوق كل هذا يعيش مع ناس محترمين، صادقين، ومنهم يستفيد، ويتعلّم، ومثلهم يفعل. الكلب يسلك كصاحبه يا امرأة.

اقتحمت قوّات جيش (الدفاع) قريتنا بلا مقاومة، فنحن غير مسلّحين، ووحدات جيشنا انسحبت إلى خط الدفاع الثاني، الذي لا نعرف أين يقع.

لقد اكتشفنا أن قريتنا كانت في خط الدفاع الأول!، وهذا ما جعل أبي يصاب بحالة هذيان أشبه بالهستيريا:

-قريتنا خط دفاع أول وتسقط في أقل من أسبوع، وبدون حرب!. كم سيصمد خط الدفاع الثاني الأقل تحصيناً!. جيش الدفاع (الإسرائيلي) يهاجم ويحتلنا، وجيش الهجوم ينسحب!.

خرج والدي إلى الزقاق عند سماعه هدير الدبابات، وجلبة السيّارات العسكرية. الجيبات الصغيرة تجوب الشوارع، بينا يملأ هدير الطائرات الفضاء، وترجّ البيوت وهي تمرق منخفضة حتى لتكاد تكشط أسقف بيوتنا من فوق رؤوسنا. أصيبت الحيوانات بالفزع، واندفعت فارّة إلى الحقول...

أبي يضحك بجنون ضارباً كفاً بكف:

-الحيوانات أيضاً تنسحب ولكن ليس إلى خط الدفاع الثاني، لكن ثورنا وبقرتنا لم ينسحبا، إنهما وفيّان لنا ولمذودهما، وللحوش الذي آواهما، وصار بيتهما..

أبي يقف في منتصف الزقاق، كأنما يريد أن يسدّ الطريق على السيّارات العسكرية. سمعناه يصرخ:

- أخرجوا من قريتنا يا.. يا..

احتار بماذا يصفهم. لم يستسغ أن يصفهم بأنهم كلاب، حتى لا تشمت أمي به، وهو يحط من شأن الكلاب.

الأرض ترتج، والدبابات تتجمع على بيادر قريتنا، والغبار ينعقد في سمائها، وثمّة صوت ينطلق من مكبر يطلب من أهل القرية عدم التجوّل، ومن أي عسكري يتواجد أن يتقدم رافعاً يديه، أو أن ينبطح ووجهه على الأرض، ويداه معقودتان على رأسه، وسلاحه ملقى بعيداً عنه، حتى يصله جيش الدفاع.

أمي من ورائنا تصرخ:

– أين خرج أبوكم؟!.

رأيناها تندفع وهي تنادي على أبي باسمه الأول:

– عبد المجيد، يا عبد المجيد، يا عبد المجيييييد.. ارجع قبل ما يقتلوك..

وعبد المجيد لا يسمع، فالهدير يصم الآذان، والأم تبتعد، ونحن خرجنا نصرخ ونبكي ونرتجف..

انشقّت البوّابات عن أصحابها، فبانت رؤوس مطّها أصحابها ليستجلوا ما يحدث، وهم يوارون أجسادهم، وبدت رؤوسهم وهي تظهر وتختفي مضحكةً لأنها في ظهورها واختفائها، وبالأعناق الممطوطة تذكّر بحركة رؤوس السلاحف.

رأينا أبي يشتبك مع أحد الجنود، بينا جندي آخر يخرطش سلاحه ويسدّد صوب راس أبي، وأبي يهوي على الأرض دون حراك. فتحت أمي ذراعيها ودارت حول نفسها، في حيت تراجع الجنود قليلاً، بينا رعد يندفع صوب الجندي، يطير في الهواء، ويقذف بجسده الضخم ليرتطم بالجندي ويسقطه، ثمّ يطبق بفكيه المشرعين الرهيبين على عنق الجندي..

أصيب رعد في بطنه، فأخذ يزحف، يزحف، حتى بلغ بوّابة بيتنا، فأرخى رأسه على البوّابة.. ومات..

***

مات أبي يرحمه الله، ومات رعد. ترى هل تجوز الرحمة على الكلاب، الكلاب التي تضحّي بحياتها وفاءً لأصحابها؟.

دفنّا أبي، وعلى مقربة من قبره حفرنا وارينا جثّة رعد المدمّاة، الممزّقة البطن والأحشاء، فما داما قد عاشا معاً كصديقين، فليس من العدل أن نفرّق بينهما وقد ماتا معاً..

طبلة الشيخ خضر

(وأبي من يغسل موتاكم
ويسحّركم في شهر الصوم
أحمد دحبور)

اليوم أول عيد الفطر. في هذا اليوم، عند صلاة الفجر، وهو يترنم بتسابيح شجية تداعب آذان المؤمنين المسترخين في أفرشة النوم، وقبل أن يفرغ من توزيع تلك الترانيم في فضاء المخيم، واضعاً يده على أذنه، بارماً جسده، موزعاً صوته في الأربع جهات، صمت فجأة، وطال صمته. عندما هرع بعض الجيران القريبين من المسجد لاجتلاء الأمر، هالهم أن الشيخ خضر قد سقط ساكن الجسد.

مات الشيخ خضر، الذي صلّى وراء الشيخ عز الدين القسام في مسجد الاستقلال بوادي النصارى في حيفا، والذي صار يصلّي بعد أن عادت له أمه بفتاة وجدتها تائهة ضائعة في الميناء تسأل الباعة والمارة عن أهلها الذين أرسلوها لتخدم عائلة تركية ثرية وهي لمّا تبلغ الثانية عشرة من عمرها، أمضها الحنين بعد ثماني سنوات من الفراق ودفعها للتوسل أياماً وشهوراً لمستخدميها أن يسمحوا لها بزيارة أهلها في فلسطين ولو لشهر واحد تبلّ فيه شوقها وتعود لهم، خاصة والحرب قد انتهت، وهي لا تدري عن أهلها شيئاً بعد رحيل جيوش السلطنة ودخول الإنكليز إلى فلسطين.

والدته التي كانت تتربص ببسطات بيع السمك لتأخذ لها (شروة) بسعر قليل، رأت البنت التائهة في الميناء، وهي تبكي، وتسأل الناس عن عائلتها، فاقتربت منها، واحتضنتها، ودفنت رأس البنت في صدرها وهي تردّد:

– يا حبيبتي يا ابنة أخي، يا روحي، أنا أنتظرك هنا منذ الفجر، ووالدك وأخوتك يبحثون عنك. يلا، هيا يا حبيبتي إلى البيت.

اطمأنت نفس البنت بعض الشيء، وإن ظل القلق يزعزع طمأنينتها، ولكنها لم تجد بداً من أن تسلم قيادها ليد تلك العمّة الغامضة التي أقتادتها، وكأنما تجرّها جراً مبتعدة بها عن عيون الفضوليين.

دخلت تلك البنت البيت في وادي النسناس، ومنذ ذلك اليوم صارت من أهل ذلك البيت ولم تلتق بأسرتها، وزوّجت لخضر الذي كان من روّاد الميناء، يشتغل يوماً ويعطّل أسبوعاً، ويعيش حياة متبطلة، غير آبه بزجر أمه، ولا بدعوات أبيه الصالحات أن يهديه الله وأن يردّه إلى عقله.

هي دخلت البيت، وخضر دخلت قلبه وعقله، وملكت عليه حياته فصار رقيقاً، عاقلاً، صموتاً، إلى أن زوّجت له، فتوجه للعمل والمسجد وصار خضر خضراً آخر. بعد تردّده على جامع الاستقلال وصلاته الدائمة خلف الشيخ عز الدين تمشيخ خضر. وبعد الرحيل عن حيفا، وعبور لبنان إلى سورية، والإقامة في مخيم حمص، صار خضر شيخ المخيم، يؤم المصلّين، ويغسّل الموتى، ويوقظ النيام للسحور في رمضان، مدخلاً البهجة على قلوب أبناء وبنات المخيم، صغاراً وكباراً بصوته الدافئ

الشجي، وبنقرات طبلته الناعمة التي تترافق مع نبرته الآمرة الودود للنيّام أن يهبوا من رقادهم ليتسحّروا.

كـان مـن عادتـه التـي عـوّد عليهـا أهـالي المخـيم أن يهـدي الطبلـة لأصحاب أول عرس بعد رمضان. وهو رغم مشيخته وتُقاه، كان يتردّد على أعراس المخيم، وأحياناً يهزّ رأسه بوقار وحسرة وهو يصغي للأغاني الشعبية التي تؤجّج الحنين في وجدانه لتلك الأيام التي مضت، والتي بعدَ عنها العهد.

وجدوه في ثوبه الأبيض، وحول رأسه كوفيته البيضاء التي كان يسدلها على رأسه وكتفيه دون عقال.

كان قد سقط على وجهه، وانحسر ثوبه عن قدميه وجزء من ساقيه، وقد بدا أطول مما هو، مع أنه يميل إلى الطول. أطلق المتجمعون آهاتهم الحزينة، تلوا الفاتحة، وترحّموا عليه، وحسده بعض الكبار على هذه الميتة المباركة، ورأوا أن الله جلّت قدرته قدّر له نهاية كريمة بلا مرض ولا بهدلة ولا إثقال على أحد.

مات الشيخ خضر بلا مرض، مات هكذا دفعة واحدة بلا مقدمات، في اليوم الأول من أيام العيد، وبعد ن أسعد سكّان المخيم طيلة رمضان، وحتى اليوم الأخير. لكن ميتته المباركة لم تمنع من أن تطلق زوجته صرخة وجع، فهو زوجها الذي ألفته على مدى أربعة عقود وأنجبت منه البنين والبنات، وشربت معه حلو الحياة في حيفا ومرّها في المخيم.

سمعت تتمتم باسم (كامل) الفتى الذي استشهد في (تل الزعتر)، وكأنما تذكّر أهالي المخيم بأن موت كامل الذي لم يبلغ العشرين، والذي لم تودعه الأم والأب والأسرى، لأنه قتل بعيداً عنها وهو يدافع عن (تل الزعتر)، هو السبب في موت الأب الصبور الذي كظم ألمه، وحبس دمعته أمام الناس، لأن ابنه مات شهيداً، ولأن الموت نهاية كل حي قصر المر أو طال.

أحضر الأستاذ سعيد، أستاذ الدين في مدرسة المخيم ليفة وماكنة حلاقة وقطعة صابون عطرية الرائحة ودون كلام انهمك في حلق عانة الشيخ وتغسيله والدعاء له أثناء انهماكه في عمله، سائلاً الله أن يكون من أهل الجنة.

لمّا أن طلب الأستاذ سعيد إحضار الكفن والحنّاء تفطّنت زوجة الشيخ إلى وصيته التي أوصاها بها، متوقعة أن تجد مبلغاً من المال يساعد العائلة فترة من الزمن. فتحت صندوق الشيخ، وأخرجت لفّةً وجدت فيها قطعة قماش بيضاء للكفن، وشيئاً من الحنّاء والقطن وزجاجة عطر صغيرة لتطييب الجسد لم ترها عنده من قبل، وقطعتين نقديتين ورقيتين تكفيان لتغطية نفقات الدفن.

ذهلت المرأة وهي تنبش الصندوق وتقلّب الأغراض القليلة التي يضمّها، لأنها توقعت أن تجد مبلغاً كبيراً من المال، ولم تستيقظ من ذهولها إلاّ على نداءات الأستاذ سعيد والرجال الذين كانوا يقدّمون له العون في تغسيل الشيخ طلباً للثواب، وتبركاً برجل فاضل طالما واسى كل

محتاج بالأدعية، وتطييب الخاطر، والحضّ على فعل الخير، والتراحم خاصة والجميع في محنة، وهم كلّهم أبناء وبنات مخيم.

أين ذهبت الأموال الذي تهامست كثير من النسوة أن الشيخ يخفيها، ويدّخرها للأيام الصعبة؟

هم حملوا جسد الشيخ ومضوا به مهللين مكبّرين، وهي وضعت يدها على خدها وصفنت منذهلة لأن الشيخ لم يترك شيئاً لعائلته.

بعد الدفن، عاد الناس من المقبرة. تقدم الأستاذ سعيد من (أم مصطفى) زوجة الشيخ، وقال لها:

– أنت لم تجدي في الصندوق سوى غيارات الشيخ من ملابس داخلية وبعض الأثواب البيضاء النظيفة، والكفن والحنّاء ولوازن الجسد الراحل إلى رحمة الخالق جلّت قدرته، أليس كذلك؟ الناس تشغلهم يا أم مصطفى هموم الدنيا، ولكن مثل الشيخ خضر كان يفكر في الآخرة. من أين له المال الذي يدخّر؟ من مخيم الناس فيه بالكاد يجدون ما يأكلونه، وفلذات أكبادهم يستشهدون بعيداً عنهم؟

عندما همّ بالانصراف استوقفته، ودخلت ثمّ عادت ومعها صندوق الشيخ وفيه ملابسه، وطبلة السحور. انحنت بالصندوق قرب الأستاذ سعيد، وقالت به بقرار حاسم:

– هذا الصندوق لك. كان الشيخ يرى فيك ابناً له. في داخله الطبلة وأنت خاطب، وقد طالت خطبتك، والمخيم يحتاج من يغسّل موتاه، ويسحّره، ويعتني بمحتاجيه.

ببطء انحنى الأستاذ سعيد على الصندوق الخشبي، صندوق من صناديق الأعراس أيام زمان، ورفعه ووضعه على كتفه، ثمّ استدار ومضى، بينما لحق به صوت زوجة الشيخ (أم مصطفى):

- مع السلامة يا أستا.. يا شيخ سعيد..

مكان نظيف حسن الإضاءة

والآن يا أخوتي، بماذا يحلم الغرباء في أوطانهم؟.

بمكان نظيف حسن الإضاءة!.

هكذا ختم مقالته، مستذكراً قصة الكاتب الأمريكي آرنست همنغوي، الذي يكن له إعجاباً يفوق إعجابه بأي كاتب أجنبي آخر، ومستعيراً عنوان قصته القصيرة الشهيرة التي ترجمت إلى العربية، والتي قرأها عدّة مرات.

وبما أنّ العاصمة تعاني من انقطاع الكهرباء لساعات يومياً، باستثناء حيين تسكنهما علية القوم، وكون الخفافيش تنطلق في الظلام لتمارس حياتها، ولأن عدداً من (الأشخاص) اختفوا في ظروف غامضة، ولم يتلق ذووهم إجابات على تساؤلاتهم القلقة والمحمومة، فقد مست (مقالته) عصباً مكشوفاً، كما يقال، رغم لجوئه للتعمية، والمراوغة، موحياً أنه يتحدث بشكل عام عن هموم البشر في الدنيا الواسعة، وما يعانونه من ظلم، وتمييز، وتسيّد للفساد دون رادع...

المقالة مرّت على رئيس التحرير ولم يتنبه لها رغم استنفار قلمه (الأحمر)، وتشككه في كل كتّأب الجريدة، وتوجسه من شطحاتهم غير المسئولة..

رنّ جرس الهاتف (الخاص). انتفض رئيس التحرير وهو يسمع (الصوت) يفح في سماعة الهاتف. وقف تعبيراً عن الاحترام، وكأنما (الذي) على الخط يراه. أخذ يتكلم بارتباك، وبدون تركيز:

– لم أنتبه سيدي لهذه الإيحاءات، أظن...

يجيل رئيس التحرير نظره على كل شيء في القاعة الفسيحة، وكأنما يستذكر العز الذي بلغه بعد مكابدة وعناء، وطول انتظار،وكتابات لفتت الانتباه له، وبوّأته هذا المركز، وهذه القاعة التي منها قفز رؤساء تحرير إلى الوزارة، أو إلى.. السجن، أو المنفى، بعيداً عن الوطن، والجاه...

– هو، سيدي، من الخريجين الشباب من معهد الصحافة، وهو معجب بذلك الكاتب الأمريكي..

صمت، ثمّ:

–نعم أمريكي، سيدي!.. نعم، عجيب هذا الأمر، وكأنما لا يوجد كتّاب في بلدنا. صحيح، سيدي، هؤلاء لا يحترمون (ثقافتنا)، فهم لا يستشهدون إلاّ بأقوال الكتّاب والمفكرين الأجانب!..

***

وضع رئيس التحرير سماعة الهاتف، وأرخى رأسه بين يديه المستندتين على كوعيهما فوق سطح الطاولة الأبنوسية، وجعل يفكر في مصير ذلك الشاب، متخيلاً المصيبة التي ستقع عليه وتهرسه هرساً بحيث تمحوه من الحياة، وتقذف به إلى العدم. ترى هل سيكتفون بطرده من العمل بعد البهدلة؟!. هذا إذا رحموه، ولا أحسب أن الرحمة واردة..

تنهد، أخذ ينقر على الطاولة بقلمه . هو لا يؤمن بالكتابة على الكمبيوتر، إذ كيف سيكتب أمام اسمه، في أعلى الصفحة، بجوار عنوان الافتتاحية: بقلم رئيس التحرير . وهو يردّد لنفسه: نصحته مراراً، قلت له: توخ الحذر، ولا تكن متهوراً، ولكنه لم يستمع للنصح، لذا ذنبه على جنبه!، آخ.. ولكن ماذا إذا شملتني العقوبة؟!.

طلب من الآذن أن يحضر (هـ) له، بأقصى سرعة.

نقر الباب بقوة، ثمّ دخل، ووقف أمام رئيس التحرير الذي بدا مهموماً.

– نصحتك كثيراً، ويا طالما حذّرتك من التهور، واللعب مع ال.. في كل حال اذهب إلى هذا العنوان..

ناوله قصاصة صغيرة عليها اسم الشارع، والجهة التي تطلبه للتحقيق معه.

***

شارع عمر بن الخطّاب!.. يا للعجب، ألم يجدوا مكاناً لهم سوى هذا الشارع!. تمنى لو أن بمقدوره كتابة مقالة بعنوان (مخلوقات شارع أبي جهل)، مقالة يبدؤها هكذا: تبت أيديهم، وأفواههم، وعقولهم، والزمن الذي وجدوا فيه، وتبّت أيدي راعيتهم أمريكا..

وتنهد وهو يتحسر على انعدام الإمكانية لكتابة مباشرة شديدة الوضوح..

الشوارع هنا مضاءة حتى في النهار، وهناك، في الجانب الآخر من المدينة ملّ الناس من كثرة الأوقات التي تقطع فيها الكهرباء، ولذا فما عادوا يستخدمون الثلاجات، وكفوا عن مشاهدة برامج التلفزيون المحلي (ممنوع استيراد الستلايت، ومع هذا فالصحون العملاّقة تغطي أسطحه الفلل، والقصور الفخمة).

تأمل المكتوب على القصاصة، ومن جديد حاول حفظ رقم البناية، وهو يتقدم للاستفسار من عامل نظافة كان يكنس أوراق الأشجار متمشياً على مهله في ظلال أشجار الزينة التي تتقابل على جانبي الشارع.

– يا أخ، الفرع رقم (...) لو سمحت؟.

ابتسم العامل، وكأنما كان ينتظر منه أن يسأله. قبض على يده، وجذبه بشيء من القوة، وبصمت، ومضى به، إلى أن توقف أمام فيلا أنيقة، محاطة بسور عال، تفوح من حولها رائحة الياسمين، الذي يغطي مدخلها.

وضع يده على زّر الجرس، فانفتحت البوّابة بعد أن تناهى صوت عبر الإنترفون، ردّ عليه (الزبّال) بكلمة واحدة:

– هو..

التفت الزبّال إليه وأمره، وهو يدفعه، ويعود أدراجه:

– أدخل، هذا هو المكان..

سمع صوتاً معدنياً. انفتحت البوابة الخارجية، فظهر شاب يقف بباب البناية الداخلي. بدا وسيماً، أنيقاً، شعره مفروق على الجهة اليمنى، أميل

للطول والنحافة. عندما صار في مواجهته مدّ يده بالقصاصة، فلم يأبه لليد الممدودة، بل أزاحها بلا مبالاة.

أمره الشاب بلهجة محايدة:

– هات كل ما في جيوبك..

أخرج دفتر أرقام الهاتف والعناوين، والنقود المعدنية..

من جديد عاد يأمره:

– القلم، والساعة، واخلع الحذاء..

حاول أن يبدو مرحاً، لعله يفهم من الشاب شيئاً عن سبب حضوره، وعمّا إذا ما كان الأمر خطيراً:

– لماذا؟ أأنا داخل إلى مسجد؟.

تجاهل الشاب دعابته:

– هات جواز السفر..

وكأنما يرد على دعابته:

–لأنك في سفرك هذا لن تحتاجه.

أخرج جواز السفر من الجيب الداخلي للجاكيت، وناوله للشاب، الذي فتح صفحاته، وتوقف عند صورة (خطيبته) التي كانت موضوعة بين غلاف جواز السفر والغلاف البلاستيكي الشفاف.

– خطيبتك، ها؟!.

– أيوه.

– تريد الصورة، أليس كذلك؟.

– أيوه.

– خذها.

ومد يده بالصورة فتناولها من يده بأصابع بدأت ترتعش.

أخرج الشاب (ريموت) من جيب جاكتته، وسدّده باتجاه الحائط، فانشق الجدار عن مدخل سحري، ينفتح على مدخل رخامي ناصع البياض.

– هنا مكان نظيف حسن الإضاءة، كما تمنيت في مقالتك، وهو نادر الوجود حتى في دول أمريكا اللاتينية التي مررت على ذكرها في مقالتك، موحياً أن دكتاتورياتها أرحم من نظام الحكم عندنا. هنا بمقدورك أن تنام إلى الأبد دون أن يزعجك أحد، أو يتناهى إلى سمعك صوت بشري، أو حيواني، حتى أصوات العصافير لن تسمعها، فقد ستسمع لصوت نفسك إلى أن تمّل.

دفعه بحزم، وما أن صار داخل الغرفة حتى انغلق الباب خلفه. أخذ يتأمل الجدران المصمتة الرخامية الشديدة البياض. لا نافذة مهما صغرت. ضوء ساطع يطفح على الجدران، دون أن تظهر لمبة، أو نيون كهربائي.

خلع جاكتته، طواها، تهاوى جسده على الرخام البارد الأملس فسرت القشعريرة في أطرافه، وقلبه، ورأسه، وأحشائه. جعل من الجاكتة وسادة أرخى رأسه عليها، وبدأ يموت..

البدوي والأفعى

إلى توفيق فيّاض

في الصيف، وعندما بدأت العطلة المدرسية اصطحبنا ذوونا .كما هو الشأن كل عام . بعيداً عن (أريحا)، ليس بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وتحوّل النهارات إلى جحيم فقط، ولكن لسبب آخر لا يقلّ أهمية وهو حاجتنا لتحصيل بعض أكياس القمح في موسم الحصاد، حيث يشتغل الكبار حصادين، ونتسابق نحن الصغار لالتقاط سنابل القمح المتساقطة من بين أيديهم، نجمعها سنبلة سنبلة، ونضمها في باقات كبيرة، تستخرج منها الأمهات حبّات القمح، بدقّ السنابل بحجر مناسب، وبهذا نكون نافعين، وننجو من حرّ أيام شهري حزيران، وتموز، ونعود مشتاقين لمخيمنا، وللسهول التي حوّلناها إلى ملاعب نضج فيها بعيداً عن زجر الأهل، وتخففاً من ساعات الحشر في المدرسة..

قلّة قليلة من العائلات تتوجه بأطفالها إلى قرى رام الله، أو بعيداً إلى الخليل، وتلك الأسر لا تكون بحالة عوز كما نحن وغيرنا من الأسر.

حملتنا سيّارة شحن، نحن وأقاربنا، وجيراننا، وتكومنا فوق أغراضنا، والخيم الصغيرة ذات العمود الواحد الذي يرفعها من منتصفها، والحبال التي تشدّها، والأوتاد التي تثبّتها كي لا تعصف بها الريح، هذه الخيام العتيقة، المتهرّئة التي ما زال أهلنا يحتفظون بها، والتي زوّدتنا بها وكالة

غوث اللاجئين الفلسطينيين، رغم أنهم ابتنوا لنا غرفاً من الطين، سقفوها بأعواد البوص بعد أن قشّروها من الأوراق الخضراء، وجففوها تحت شمس شديدة الحرارة، ثمّ ضموها بعد جفافها في حصر تشدّها خيوط غليظة، وفردوها فوق ألواح خشبية، وغطّوها بالطين..

احتفظ أهلنا بالخيام، وهاهم يحملونها معنا لتقي رؤوسنا الشمس، ولننام تحتها، ونضع فيها أغراضنا..

عبرنا جسر الأردن، وتشبثنا بحواف السيّارة، وتطاولنا لنرى منظر النهر الذي يسمّيه أهلنا نهر الشريعة، فلم نر شيئاً لأن السيارة عبرت الجسر بسرعة، مارّة بالمخفر الذي توقّف أمامه شرطي، أشار للسائق أن يواصل سيره.

تأملت بيوت (الشونة) الجنوبية المتناثرة بين الحقول، والتي كنا نرى أضواءها في الليل من مخيم (النويعمة)، تلك المضاءة كبيوت أريحا بالكهرباء . التي لم نكن نعرف ما هي . لأننا كنّا نضيء بيوتنا، ومن قبل خيامنا، بأسرجة صغيرة، بدلناها من بعد بـ(لامظات) مصنوعة من الزجاج، لها بلّورات رقيقة، شفّافة، هشّة، تضيء أفضل كثيراً من الأسرجة التي كنّا نصفها بأنها أسرجة الغولة، أي تشبه الضوء الخفيف المنبعث من أجنحة حشرة تطير وتضيء في الليل، وتبدو كحبّة ضوء تتحرك في العتمة، أمّا (اللوكسات) المصنوعة من معدن أبيض، والكبيرة الحجم، والتي لها (شنبر) يتوهّج بضوء كثير عندما يشتعل، منتشراً عبر زجاجته الكبيرة، فقد عرفناه متأخرين، وقد صار سيّد سهرات الأعراس، والمناسبات الكبيرة.

تلوّت الشاحنة مطوّحة بنا يميناً وشمالاً، ونحن الصغار نتضاحك فرحين، مستطرفين ما يحدث، غير خائفين، بينما الأمّهات، والجدّات يتعذبلن من الشيطان الرجيم، ويطلبن من الله السلامة، وهنّ يطوين رؤوسهن بين أيديهن، دائخات من حركة السيّارة العنيفة، التي تلخبط المصارين في البطن، وتصيب الرأس بالدوّار..

لم نر (مادبا) براحتنا، فالسيّارة واصلت نهب الطريق إلى أن وصلنا (ذيبان)، ومنها اتجهت بنا شرقاً ، بين حقول القمح الأصفر المتماوج، الذي بدا بحراً من السنابل، فتشاهدت النسوة، بينما كانت السيّارة تخفّف من سرعتها وهي تمضي على درب ترابي ضيّق، إلى أن توقفت في مطرح فسيح، وارتفع صوت:

– وصلنا، يلاّ، انزلوا..

رأينا السائق يهبط، وقد انهمك في القيام بحركات لتليين جسده المتيبس من طول الجلوس وراء المقود، ويمسّد على ظهره بيديه، ويشد جذعه إلى الوراء دافعاً بطنه إلى الأمام، ثمّ انطرح على التراب متمدّداً على ظهره، في حين أخذ الرجال الكبار في فتح باب السيّارة، ومساعدة النسوة على النزول، وسحب الأغراض، والشروع في نصب الخيام الأربع قبل أن تدهمنا العتمة.

غططنا في نوم عميق، داخل الخيام وحولها، رغم تحذير الأهل لنا من الأفاعي. مع شقشقة الفجر استيقظت، وأخذت في تأمل ما حولنا، وما فوقنا من سماء شاحبة بدأت نجومها تختفي، مصغياً لهسيس سنابل القمح

المتماوجة مع حركة نسائم خفيفة، في حين بدأت مثانتي تضغط، وأنا أغالب رغبتي في التبوّل والتغوّط، حتى لا أضطر للابتعاد، حيث يمكن أن تكون أخطار لا أعرفها، كالأفاعي، أو الكلاب الضّالة، أو الذئاب، أو ما لست أدري، مما تخفيه سنابل القمح العالية، والتي سأختفي لو وقفت بينها..

رفعت جسدي قليلاً، مجيلاً النظر، فرأيت بيت شعر أسود ممتد، وحوله ماعز، وأمامه فرس أو حصان، وجمال نائخة، رأيتها تمضغ حين نهضت واقتربت من المكان بتوجس، مقدماً رجلاً مؤخراً الرجل الأخرى..

أرهفت السمع، فأنا أخاف الكلاب، ثمّ مضيت محاذياً حقل القمح، عين على بيت الشعر، والعين الثانية على الخيام حيث الأهل، حتى إذا م طرأ شيء ما أكون جاهزاً للهرب، أو الصراخ طلباً للنجدة..

فرشخت ساقي، وقرفصت، مباعداً ما أمكن بينهما وأخذت راحتي في التبوّل والتغوّط، ذلك أن أحداً لا يراني، ولا يسمعني..

سمعت خلفي تنفّساً خلته صوت سنابل القمح:

فووووووو.. فففففف.. فووووو.. فففففف..

برمت رأسي بينما ساقاي ترتعشان تحتي كقصبتين.. فرأيتها تلتف حول نفسها كما لو أنها كعكة، ورأسها تنام على منتصفها، وهي ضخمة بلون رمادي.

تصلّب ظهري، ووقف شعر رأسي. لم أصرخ، مسحت شرجي بما تيسر، حجر، أو قطعة تراب صلبة، وكرجت بسرعة، ثمّ وقفت وأنا ألم بنطلوني القصير، وأبكّله بأصابع راعشة، وناديت على عجوز رأيته يقف بجوار جواده رابتاً على عنقه وهو يضع أمامه دلو ماء، فتنبّه العجوز، وغمز بيده أن تعال، فتوجهت صوب بيت الشعر حيث يقف وهو يربّت على عنق الجواد. قلت له وأنا أرتجف، وصوتي بالكاد يخرج من حلقي:

– هناك أفعى، يا عم، أفعى كبيرة..

قال لي بهدوء:

– لا تخف يا ولدي، هل هي أفعى سيّارة أم أنها نائمة؟..

قلت له:

– نائمة يا عم، وتنفخ، وهي كبيرة..

خرج شاب من داخل بيت الشعر، وسأل:

– ما الأمر يا يباه؟.

أجابه العجوز:

– الولد رأى أفعى نائمة. الفلاّحون لا يعرفون طباع الأفاعي، والولد خائف مع أنها نائمة.

تناول الشاب عصا طويلة، وتوجه إلى حيث أشرت، أمّا الأب العجوز فلحق بنا وهو يأمر ولده.

– لا تقتلها وهي نائمة، لا يجوز، عيب.

رفعت رأسها، وفتحت عينيها، وبدت كأنها مندهشة من هذا الإزعاج، ولكنها وقد رأت الشاب، وأدركت الخطر المحيق بها، همّت بنفض جسدها، ودفع رأسها، فعادلها بأن أهوى على الرأس تماماً، فانهرس، وأخذ جسدها ينتفض، وذيلها يرتجف، وهي تتقوّس، وتتلوّى، وتتمدّد، وتتقلّص. وهنت حركاتها إلاّ من ارتجافات أخذت تضعف إلى أن همدت تماماً.

قال الأب العجوز بغضب:

– قتلتها وهي نائمة؟!.

قال الشاب:

– أيقظتها يا أبي. رفعت رأسها ورأتني، وهمّت بأن تهاجمني. أتريدني أن أنتظر حتى تفرغ سمّها في بدني؟!.

مضى العجوز مبتعداً، أمّا الشاب فقد ربّت على كتفي، وهو يقول:

– أنتم الذين حضرتم هنا في مساء البارحة!. حظّك أنت وأهلك طيّب. الحمدلله أنها لم تصح عندما كنت تقضي حاجتك، وإلا لهلكت، وحدثت مصيبة لأهلك، وبدلاً من الحصار والعودة ببضعة أكياس من القمح تجمعونها يعود أهلك بجثّة لا سمح الله.

ثمّ وأنا أستدير لأعود إلى أهلي، قال ل:

– لا تذهب. انتظر، يجب أن تتعلّم شيئاً، وهو أن قتل الأفعى لا يكفيك شرّها، فهي قاتلة حتى وهي ميّتة، لأن السم يبقى في عظامها، ولو

داس أحد على تلك العظام فسوف يسري السم في بدنه ويميته، لذا فلنحفر عميقاً، ولنضرم فيها النار، فالنار تحرق سمّها، ثمّ لا يجب أن نكتفي بهذا، سنواريها بالحجارة، ونطمرها بتراب كثير..

سألني وهو يضرم النار في كومة أشواك وحطب حارقاً الأفعى:

– ما اسمك يا فتى؟

– رشاد..

– يا رشاد، لا تنتظر أن تستيقظ الأفعى حتى تقتلها، ولا تأمن لها، فحكايات العواجيز شيء وسم الأفعى شيء آخر. الأفعى غدّارة، وهي ليست صديقة للبني آدم. بعد أن تقتلها ادفن أذاها عميقاً لتحمي غيرك من سمّها. وفي الخلاء كن دائماً حذراً، ولا تجلس، أو تنام، أو تغمض عينيك تماماً. ودائماً ليكن في يدك شيء تذود به عن نفسك، عصا، أو حجر. وحين تكبر، ليكن دائماً معك سلاح، فالخطر لا يردّ بطيبة القلب، أو التوكّل. الأفعى لا ترحمك معترفة لك بالجميل لأنك لم تقتلها وهي نائمة..

وأنا أبتعد صوت الخيام، فرحاً بأصوات الأهل الذين استيقظوا، لحق بي صوته:

– لا تنس يا رشاد، لا تنس..



يا دنيا؟!

مع صعود شمس الصباح ودبيب الدفء في بدنه أخذ يحرك أعضاءه ببطء وتكاسل. أشعة الشمس الحارة غسلت وجهه ففتح عينيه ورمش بسرعة محاولاً اتقاء لفح السخونة، والتعود على الضوء.

داهمت سمعه جلبة غامضة، أخذ يألفها رويداً رويداً. تلمس سُلاميات أصابعه بشرة وجهه، وجبينه، وأجفان عينيه، ثم مد يديه ليتحسس الجدار الذي يستند إليه، وحجارة الرصيف الملساء تحته. مسح الدموع من عينيه، دموع الدهشة والغربة وحرقة أشعة الشمس، ثم فتح فمه إلى أقصاه وتأوه بعمق. أحنى جذعه وبدأ يحبو بجسده المرتجف الذي اشتدت حركته واتزنت مع كل مسافة يزحفها. استند إلى الجدار وخطا ببطء، وعلى الرغم من ترنحه فإنه واصل السير وقد كف عن الاستناد إلى الجدار وترميش أجفانه.

لا يذكر من أين جاء بالضبط، ولا متى بدأ ينطق الكلام. أذناه بدأتا تلتقطان الجلبة الصباحية للسوق في المدينة، حتى أنه يميّز الآن الكلمات والنداءات.

مدينة عجيبة حقاً، تدخلها من باب وتخرج من بابها الآخر. مدينة ببابين فقط! باب للدخول وباب للخروج. إن بابي المدينة هذه متشابهان. وهو الآن لا يدري من أيهما دخل، ولا من أيهما سيخرج، من أين بدأت

رحلته وإلى أين ستنتهي به. لكنه يمشي، يتأمل، يحاول الاكتشاف، ويتذكر ما ليس له به يقين!.

في فمه طعم الحليب، يمرر لسانه بين شفتيه ويحاول وصف طعم الحليب بين شفتيه وفمه: مزيج من عشب وماء وحلمة ثدي ورائحة صدر الأم وشعرها وهي تحني رأسها لتسهل عليه الرضاعة. ولكن أين تلك الأم والمكان الذي كان، ومنذ متى فارقها جميعاً؟.

مدينة ببابين..؟! ما الذي أتى بي إليها، ومن أي مكان؟!.

رأى وجهه في زجاج واجهات المحال التجارية. تشمم روائح الأطعمة التي تفوح من المطاعم. رنّت صاجات باعة الخروب والتمر هندي والسوس في أذنيه. أخذ يتأمل النساء اللواتي تتثنّى قدودهن في ملاءاتهن، وتهمس أصواتهن كلاماً للباعة يجعلهم يكفون عن نداءاتهم ويطلقون تنهدات ما أن تخفت حتى تعود لتعلو من جديد.

- الحرير للحرير.
- صباحنا عسل باللوز.
- يا ميسّر الأمور يا رب.. عليك الاتكال.
- منهم لله الذين يذيبون القلوب..

وفجأة يسكت السوق، ويأخذ في مراقبة ما يحدث تحسباً من ورطة قد تلحق به هو الغريب، ويقطع الصمت صوت بائع خروب:

- حلاوته من الله الخروب.

يمد أحدهم راحته وينغّم صوته:

– حسنة لله يا أحسن خلقه.

يصطف الخلق على الجانبين أمام المحال، يخرج التجار من داخل محالهم، يتأملون بصمت أو بتأوهات خافتة تلك التي تمشي على مهل، نخلة في عباءاتها السوداء الحرير، منديلها يبرز جبينها الوضاء، والشعر الأسود الناعم ينزل ضفيرة تتأرجح على ظهرها. عيناها تبتسمان بفتور ورضى. نظرات العينين لا تتوقف عند شيء أو على واجهة أو وجه.

بوغت الغريب بالعينين تتوقفان عنده، تنظران في عينيه، وبغمزة صغيرة له، له هو بالتحديد، فمشى متردداً متشككاً، خشية أن يكون متوهماً.

ابتعدت قليلاً، توقفت أمام متجر قماش، أشارت للبائع بإصبعها، فدخل وعاد يحمل ثوب قماش أخذ يفرده بلهوجة ولهفة. التفتت إلى الوراء، التقت عيناها بعينيه فخيل له أنها تبتسم له ابتسامة غامضة مشجعة.

أفلتت القماش من بين أصابعها واستأنفت تأودها فمشى وراءها محاذراً أن يتنبه له الناس في السوق.

أخرجه من سرحانه صوت بائع الخروب وهو يمد له يده بكوب نحاسي يطفح بالسائل البني والرغوة تسيل على حوافه:

– خذ، حلال عليك، إنها تبتسم لك!. يبدو أنك غريب عن مدينتنا، إيه كل جديد وله بهجة، لكن احذر يا ولدي! لا تستغرب أن أخاطبك يا ولدي، فأنا كبير بعمر والدك أو أكبر.

وهنا حاول الغريب أن يتذكر والده فلم يفلح.

- والتجربة علمتني أن لا أطمئن..

- ها..

- يبدو أنها أخذتك!. عندك حق فهي جميلة، أجمل فتاة في المدينة، وهي تمنعت واستعصت على أمير المدينة وعبثت بوقاره، ولولا أن الرجل على دين لفسد وأفسد مدينتنا، لكن الله لطف بنا. الجمال غرور يا ولدي! احذر أن تفتنك.

الغريب يتأوه، ينطق ببطء:

- هي.. هي.. ها..

- هي يا ولدي ناديا، وأهل مدينتنا ينادونها دنيا.

وقرع صحونه النحاسية فبدد الرنين الصمت، وبصوت خشن عريض لاهث نغّم كلامه:

سبحان الواحد القهار.

سبحان خالق الليل والنهار

سبحان الدائم الواحد الأحد

سبحان مبدع الجمال

يا الله.

دبت الحركة في الشارع. رآها تسير الهوينا بدل وتيه، والصمت يسود أمامها وحولها، فخطا بعجلة، وعندما صار على مقربة منها توقف تماماً.

رأى أصابعها تهمل القماش ثم تمتد إلى عباءتها فتمسدها حول فخذها، وتدير وجهها صوبه وترشقه بغمزة فيرتجف قلبه ويشعر بجفاف في فمه وحلقه، وتأخذ حبات العرق في التفصد على جبينه وعنقه. يتماسك مستنداً إلى واجهة أحد المحال. يهز صاحب المحل رأسه ويضرب كفا بكف وهو يقول:

-راح المسكين، أخذته..

علّق جاره وهو رجل قصير القامة لحيته البيضاء تغطي صدره الضيق:

- يبدو أنه غشيم، لقد آخذها المسكين جداً!.

نسي نفسه تماماً وهو يمضي وراءها. لم يشعر بالجوع أو الظمأ. ولولا أن بائع الخروب أخذ يفاجئه بين وقت وآخر بيده الممدودة بالكوب النحاسي الطافح بالسائل البني الحلو وعلى حوافه زبد أبيض لما تذكر الطعام والماء، ولولا رنين كؤوس البائع لما تفطن إلى نفسه.

رأى قرص الشمس يتواري خلف أسوار المدينة، وبدأت الظلال الرمادية تتسع، والمحال التجارية تغلق أبوابها. شعر بوهن في ساقيه فرغب بالقرفصة أو الجلوس وإسناد ظهره ليرتاح قليلاً، لكنها التفتت إليه بحدة وغرست نظرة زاجرة في عينيه وأسرعت مبتعدة. جر قدميه وجسده بهمة واهنة. عندما أوشك على السقوط رآها تفتح ذراعيها ببطء والعباءة تنفتح عن جسدها العاري، ثم بسرعة تلف العباءة حول جسدها وتندفع عبر البوابة الضخمة. هرول باتجاهها، رآها تمضي في الفراغ والعتمة الباهتة، سمع صوتاً فيه استغاثة وإغواء:

–تعاااال!..

أخذ يركض مبتعداً عن البوابة التي سمع صوت إغلاقها وراءه. على رمال الصحراء التي تحيط بالمدينة رأى طيفها ينأى، عباءة سوداء بلا تفاصيل.

إنه يركض يركض، يركض وصدره يلهث وأنفاسه تحشرج وعرقه يسيل، وقدماه تغوصان في الرمال الساخنة، والبقعة السوداء تصغر وتصغر وتصغر إلى أن تتلاشى فيوشك على الجنون، يناديها:

– دنيا، دنيااااا..

يتبدد صوته في فراغ الصحراء الموحشة، ويلتفت حوله فلا يرى سوى الفراغ، فيرتمي على رمال الصحراء وقد أدرك أنها النهاية!.

شارع الحريّة

أنهكه التعب بعد ساعات المشي المضني بحثاً عن العنوان. اشترى دليلاً لأحياء المدينة من مكتبة الاستقلال. أقعى على رصيف الشارع، وأسند ظهره للجدار، وجعل يتأمل الخطوط، والسماء، والمعالم المتشعبة للمدينة المترامية، ولكنه لم ير آثراً يدل على اسم ذلك الشارع الذي تقع فيه البناية حيث عنوان المكتب.

أخذ يسأل المّارّة عن عنوان شارع (الحريّة)، ولكنه لم يُجب بغير هز الأكتاف، أو الابتسام، أو رفع الحاجبين تعبيراً عن الدهشة.

اقترب من شابة لطيفة الوجه، وسألها بحذر وهو يمد لها الورقة التي تحمل عنوان الشارع، والبناية، والمكتب، وبعد أن تأملت العنوان قالت بحيرة:

- لعلّه شارع فرعي غير مسموع به، أو.. ربّما يكون جديداً ولذا لم يثبّت على الخارطة.

وأضافت كلمة واحدة لم يفهم مدلولها:

- غريب!.

لم يعرف من الغريب، هو، أو اسم الشارع. لا شك أنه هو الغريب بدليل أنه لا يعرف شيئاً عن المدينة أكثر من أنها عاصمة البلاد، وأنه لا أقارب له فيها، وأنه زارها في صغره مرّات سريعة مع المرحوم والده، وحين

اصطحب والدته لمراجعة طبيب العيون. أمّا حين درس في الجامعة فقد ظلّ غريباً، أو فلاّحاً كما سخرت منه بنات صفة المدينيات، اللواتي كنّ يحضرن إلى الجامعة بسيارات خاصة، وأحياناً بصحبة مرافقين وسائقين.

لماذا لا يدلني أحد على ذلك الشارع؟. لماذا يضحك كثير ممن أسألهم عن العنوان؟. هل لغرابة ملامحي، وتواضع ملابسي؟!. أنا خريج جامعي، وهم يحتاجون لمن يتقن الإنكليزية لتوظيفه مترجماً، وبراتب مناسب كما وعدوا في الإعلان!.

الغريب أنهم اكتفوا بوضع اسم الشارع، ورقم صندوق البريد، دون أن يعلنوا عن رقم هاتف الشركة. أتكون شركتهم حديثة؟ هذه فهمناها، فأين الشارع كي أصل إلى البناية، والمكتب الذي في الدور الرابع؟!.

في الأحياء الحديثة، البعيدة عن وسط المدينة أرعبه نباح الكلاب، تلك الكلاب الضخمة التي كانت تتسلق الأسوار مطلقةً نباحاً اقشعر بدنه منه، ورؤوسها الكبيرة توشك أن تنشب أنيابها في الأسلاك التي تسوّر الجدران العالية، حمايةً لها من اللصوص، ونظرات العابرين.

أخذ يتأمل الأبنية بأسقفها القرميدية، ومشربياتها، والنباتات المتسلقة على الجدران، بأزهارها الفاقعة، ويتشمّم الروائح التي تتضوّع من أشجار الورد.

باغته شرطي بالسؤال، وهو يلوّح بعصى داكنة اللون، كأنما يتوعده:

– ماذا تفعل هنا، ولماذا تتأمل البيوت، والنوافذ، والأسوار؟!.

بلهوجة ردّ على أسئلته الاتهامية المتشككة:

– أنا يا سيدي أبحث عن هذا العنوان...

ومدّ يده بالعنوان المثبّت على مزقة من صحيفة. فتأمله الشرطي، ونقّل نظره بين الورقة وبين وجهه وكأنما يتبيّن ملامحه وما تخفيه، وبسخرية قال له:

– الحريّة.. ها! احمد ربك أنني شرطي حراسة طيب القلب، وإلاّ لكنت اقتدتك إلى السجن. يلاّ، انفد بجلدك.

عجّل في مشيته مبتعداً. انعطف في نهاية الشارع. رأى عمّال نظافة بملابس رمادية، وسيارة عملاقة ترفع الحاويات وتلتهم ما في داخلها، ثم تلقي بالحاويات على الرصيف، ويتقافز العمّال متعربشين بالسيّارة التي تمضي هادرة.

عند تقاطع الشارع يتوقف الناس على الرصيف قرب (كشك) يبيع الصحف والمجلاّت، وكتب الأبراج، يتأملون العناوين بلا مبالاة، ثمّ ينتقي بعضهم مجلةً، أو صحيفة، أو رزمة من الصحف والمجلات، ويمد يده للبائع المستقر في جوف (الكشك) والذي لا يظهر منه سوى بعض وجهه، وينقده ثمن ما أخذ.

اقترب شرطي من المكتبة، أجال نظره على الصحف، والمجلات، وانحنى محيياً البائع اللابد في الداخل، والذي يمط رأسه بين فينة وأخرى ليراقب الزبائن، وينبههم إلى ضرورة عدم العبث بالصحف والمجلات، طالباً ممن يقلّبونها أن يعيدوها إلى مواضعها على الحوامل المعدنية.

الشرطي رفع رأس عصاه بحركة توحي بالتحية، فردّ عليه البائع داعياً إيّاه لشرب الشاي معه داخل الكشك.

تشجّع واقترب من الشرطي قبل أن يدخل إلى الكشك، وسأله بشيء من المرح والتباسط علّه يكسب ودّه، فيحظى بعونه. سأله:

– أليست الشرطة في خدمة الشعب؟!.

أجابه الشرطي وهو يلاعب عصاه في الهواء:

– طبعاً، وإلاّ لماذا أنا هنا؟!.

– لهذا أريد منك أن تدلني على شارع الحريّة. لقد دخت وأنا أبحث عنه، واشتريت خارطة للمدينة ولكنها لا تتضمن موقع هذا الشارع. لقد اقترب المساء، وأنا غريب هنا. انظر هذا هو العنوان المنشور في الجريدة، حيث اسم الشارع، واسم البناية، ورقم الدور الذي يقع فيه المكتب، وللأسف لا يوجد عندهم هاتف في الشركة، ربّما تكون الشركة حديثة..

. تريد شارع الحرية ها؟ وأنت آت من الريف، وتتلبّد في هذه الأحياء، هات يدك لأقتادك إلى العنوان المناسب..

مدّ يده فإذا بإسوارة الكلبشس الفضيّة تطبق على رسغه، و..مضى الشرطي به، وهو يهمهم:

. شارع الحريّة، وتبحث عنه هنا في هذه الأحياء!.. لا تخافون الشرطة، ولا تحمي الكلاب بيوت أصحابها منكم!.. سنرى ما يفعلونه بك في القسم..

فنجان قهوة فقط

بعد المكالمة القصيرة، أشعل سيجارة، وسحب منها نفساً عميقاً، وقلّب أصابع يده اليمنى، السبّابة والوسطى، المصبوغتين بلون حنائي، بسبب إدمانه التدخين.

كان كأنما يقرأ طالعه في اللون، وخطوط راحته المتغضنّة، متسائلاً عن سر (دعوتهم) له، لشرب فنجان قهوة.. فقط!.

من عادته أن يشعل سيكارة من عقب السيكارة المنتهية، ويسرّح نظره بعينين نصف مغمضتين كأنما ليتحقّق ممّا يلوح له، هو الذي تعبت عيناه من عتمة السجن على مدى الأعوام التي سرقت من عمره.

تقول زوجته:

– رأيت القلق على وجهه فانقبض قلبي من تلك المكالمة، لذا سألته عمّن اتصل به..

قال لي:

– يريدونني أن أشرب عندهم فنجان قهوة.. فقط!.

– عرفت من يقصد، لذا لم استفسر منه (عنهم)!. فقط قلت، وكأنما أطمئن نفسي، وأهدهد مخاوفي:

– ولكنك تركت السياسة!.

قال لي ساخراً، بصوت خفيض طافح بالقهر:

– ربّما تذكروني. لعلّهم رأوني مع صديق حزبي قديم، أو في جلسة تضم أحداً لا يروقهم، أو لعلّهم يريدون إشعاري بأنني تحت عيونهم!.

تساءلت:

– فنجان قهوة!

– فنجان قهوة.. فقط، لا تنزعجي، هذه مجرد دعوة!، هذا ما قاله لي الصوت عبر سمّاعة الهاتف..

سألته:

– أتتوقع أن أحداً ما وشى بك؟.

– ...

– كنت تبدو هادئاً عندما كانوا يحاصرون البيت، ويداهموننا في الفجر!..

ولأخفّف عنه سألته:

– أتذكّر ليلة زواجنا وأنت تحدّثني عن الوطن، والحريّة، وفلسطين، والأمّة؟!. حتى في ليلة العرس، تقلبها محاضرة سياسية!. سألتك: ألا تحبني، أما كنّا ننتظر هذه اللحظة؟. أنت تحب الحزب أكثر منّي، لأنك في ليلة العرس لا تبدي لهفة على اللقاء!.

طيّب خاطري بـ..، ماذا أقول؟ .. و..

رأسه اشتعل شيباً، وظهره تقوّس، فصل من التدريس، ولكن الأولاد والبنات لم يقصّروا، فلم نحتج، ولم نشكُ، ولا مددنا أيدينا، وعشنا معاً بدفء رسائل الأبناء والبنات، وبلقاءات الأحفاد في العطل الصيفية، عندما يتوافدون مع آبائهم وأمهاتهم ..

عندما عاد، وكنت أنتظره قلقة، خاصةً وقد خرج مبكّراً، وعاد بعد أفول الشمس، لم يقل شيئاً، حتى أنه لم يطرح علي تحية المساء المتلهّفة كما عودني حين يعود بعد قضاء قسط من الوقت في المقهى مع بعض معارفه الذين يلعب معهم (طاولة الزهر)، ويدخن النارجيلة. بدا وكأن حزن العالم هجم عليه وهدّ حيله، وزاد ظهره تقوّساً. نظر إلي بعينين منهكتين، وارتمى على الكرسي، وأطلق تنهدة مديدة. غادرت لأحضر العشاء، فأنا اعتدت أن لا أتناول طعامي بدونه، وحين عدت ألفيته وقد وضع رأسه بين يديه وكأنما يأخذ إغفاءة. ناديته بلطف حتى لا أزعجه فلم يجب. وضعت صينية الطعام، وربّت على ظهره لأوقظه، ولكنه لم يستجب، فهززته بقوّة وقد توجست، فمال رأسه، واندلق كوب الماء الذي كنت أحضرته له ليشربه، عندئذ صرخت، وصرخت، ولم أتوقف عن الصراخ، موهمة نفسي إنه سيستيقظ على صراخي، رغم أنه مرهق من هذا اليوم الذي قضاه (عندهم) لشرب فنجان القهوة..

كهلان محبان يقضيان ما تبقّى من العمر معاً، بعيداً عن الهموم والمشاكل، هذا ما أملناه، خاصةً بعد أن كبر الأبناء والبنات وتوزّعوا في

بلدان الخليج بحثاً عن رزقهم، وما عدنا نحمل هموم تربيتهم، وتعليمهم، وضمان مستقبلهم!.

عندما تدفق الجيران على صراخي، ومدّدوه على السرير، وغطوه بالشرشف، أدركت أنه.. مات!

***

صورته على الجدار، في إطار أسود. عيناه حالمتان، وعلى شفتيه طيف ابتسامة. وجهه مستدير طفولي. على جبينه غرّة شائبة تبديه وسيماً ووقوراً.

تقول الخالة:

– الأبناء والبنات رحلوا جميعاً، وهو كسر ظهري بموته، وأنا بدونه ما عدت أرغب في الحياة!.. فلماذا أعيش، ولمن؟!. أسأل نفسي: ما الفائدة من كتابة هذه الحكاية؟. هذا فنجان قهوته، الذي أحبه، والذي شرب قهوته دائماً فيه!. إنني أغمض عينيّ، وأتمدد كل ليلة، سائلة الله جلّت قدرته أن يلحقني به، وأن يقبض روحي برفق، ها أنذا أنتظر..

تنبيه للقرّاء: هذه الحكاية، أو القصة، كتبتها خالتي (فهيمة)، وهي في الحقيقة ليست خالتي شقيقة أمي، ولكنها قريبة للمرحومة والدتي.

وقد كانت الخالة فهيمة معلّمة مدرسة، وقد درّست بنات المرحلة الثانوية التاريخ طيلة ربع قرن..

عندما زرتها قبل وفاتها بيومين أطلعتني على بعض كتاباتها، ومنها هذه الحكاية أو القصّة. قالت لي: لم أكتبها للنشر، كنت أخفف بكتابتها آلامي، ولذا يا خالتي – وأنت في مقام ابن أختي – يا رشاد.. اطّلع عليها، ورَ ما أنت فاعل بها!..

ثمّ، ها أنذا أنشر القصّة، آملاً أن تكون المرحومة قد اجتمع شملها بزوجها، وأن تكون هنئت معه هناك. وابتهل إلى الله أن تكون راضية عن نشري لهذه القصة، لأنها ما عادت تعني المرحوم زوجها، أو تعنيها.. فقط!..

سر خطبة الجمعة

في مخيمنا يستحيل أن تسمع كلمة ذم بشيخ مسجدنا، لأن الرجل طيب، وقور، وهو فوق كل هذا في حاله، وأسرته مستورة، وكلمته دائماً تحض على عمل الخير، والصلح بين العباد، لأن كل شيء زائل وباطل، ولا يبقى إلاّ وجه الله والعمل الصالح، كما يردّد في خطب الجمعة، وفي الأحاديث التي تعقب صلاة العشاء.

ولأنه لا بدّ من تجمع الناس للصلاة معاً، وبعد أن استقر بنا الحال مؤقتاً في مخيمنا انتظاراً للعودة المأمولة القريبة إن شاء الله، لقرانا ومدننا التي هجّرنا منها، فقد بذل مدير مخيمنا جهداً لتزويد مخيمنا بخيمة كبيرة مترامية، تتسع لعدد كبير من المصلين، وقد نصبت الخيمة في مكان خلاء، ورفعت من منتصفها بعمود غليظ طويل، ومن زواياها الأربع بأعمدة أقصر، وشدّت بأوتاد دقّت عميقاً لتثبّت الخيمة في وجه الرياح العاصفة التي تهب شتاءً، وفي بعض أيام الصيف حاملةً الغبار، ولتحمي رؤوس المصلين من المطر والبرد شتاءً، والحر اللافح صيفاً.

حال مسجدنا تحسن قبل تحسن حال سكان المخيم الذين وفدوا من قرى ومدن فلسطينية ما كان يخطر ببال أحدهم أن يجتمعوا معاً وفي هكذا ظروف، فما أن بدأ البناء بالطوب المصنوع من التراب الممزوج بالماء والتبن، والمجفف بشمس أريحا اللاهبة، حتى شمخ بناء المسجد. وما أن فرغ البناؤون من البناء حتى انهمك الدهانون بدهنه بالشيد الأبيض

المشّع بتأثير وهج شمس (أريحا) الشرسة. الجميع عملوا لوجه الله: البناؤون، والدهانون، والنسوة اللاتي تسابقن لفعل الخير، وسرين مع الفجر حافيات الأقدام لجلب (البوص)، وعدن في الظهيرة قاطعات مسافة تزيد على أربعة عشر كيلو متراً ذهاباً وإياباً، ناهيك عن التعب في قطع أعواد (البوص) الخضراء.

***

بعد طول انتظار للعودة المأمولة تحت الخيام في شمس (أريحا) اللاهبة، وفي شتائها الذي رغم دفئه، واعتداله، يبقى غير محتمل لقلة الملابس التي نحتاجها لتدفئة أجسادنا، ولندرة الأغطية ورقتها. شرع الناس يعدون قوالب الطوب، ويبنون غرفاً بسيطة مغطاة بحصر (البوص) الجاف الذي تجلبه النساء من حيث ينبت على شاطئ نهر الشريعة . نهر الأردن . على رؤوسهن في حزم ذات أوراق خضراء، ثمّ يتم تقشيره وتعريضه للشمس حتى يجف، ومن ثمّ تشد الأعواد بخيوط غليظة، تمدد فوق ألواح خشبية، وتغطى بالطين الذي يجف في أيام قليلة بحسب حرارة الشمس.

صار لمخيمنا مسجد، وللمسجد مئذنة، وفي مواجهة المخيم نهض مخفر للشرطة زرع حوله (البوص)، وأشجار الأثل، وشجرة كينا، وفيما بعد زرع النعنع، والعطرية، ونباتات ذات أزهار مختلفة تسر الناظرين، ونهضت مصطبة في المدخل، سويّت بالإسمنت، بحيث تكون لائقةً برئيس المخفر وضيوفه من المخاتير والوجهاء الذين يتوافدون عصراً ويضمهم المجلس برئيس المخفر، حيث ينهمك الجميع في شرب الشاي المنعنع، ويتبادلون

الأحاديث بأصوات عالية تقطعها قهقهات مجلجلة، وأحياناً تخفت الأصوات وبخاصة حين يتوارى رئيس المخفر في الداخل لشأن ما. كنا نحن الصغار نسترق السمع والنظر متأملين رجال الشرطة وأسرّتهم المعدنية التي ينامون عليها في غرفهم النظيفة، مواصلين لعبنا في الجدول الجاري، المتدفق من نبعة (عين الديوك)، حيث يروي بيارات الحمضيات، وحقول الخضار، القريبة من مخيمنا، والممتدة حول أطلال قصر (هشام بن عبد الملك).

***

وسوس (أبو نصرة) في عقول بعض الناس في مخيمنا، مثيراً ريبتهم في أسباب تردّد شيخ مسجدنا على مخفر الشرطة مع أنه رجل دين، ولا شأن له بالشرطة ومشاكلهم، هو الذي يفترض أن ينأى بنفسه عنهم حتى يحتفظ بنقائه، خاصة بعد تفجر المظاهرات، وتفشي الحزبية في المخيم، والقبض على بعض الأساتذة والطلاب الكبار واقتيادهم إلى سجن (أريحا) والتحقيق معهم، والإفراج عنهم بعد أيام قضوها في الحبس (بكفالة) بعد تدخل الوجهاء والمخاتير، وأخذ التعهدات بعدم العودة (للولدنات) والشغب، والقيام بما يعكر هدوء النظام...

(أبو نصرة) لفت انتباهنا، وكنّا قد كبرنا شبرين، وصرنا نشارك في التظاهرات، ونتحدث في السياسة، ونهتف مطالبين بالعودة إلى قرانا ومدننا التي بالكاد نتذكر ملامحها نحن الذين أخرجنا منها صغاراً مع ذوينا عندما وقعت نكبة ٤٨، إلى أن (الشيخ) يتردد على (المخفر) يوم الجمعة، قبل

الصلاة وبعدها. كان أبو نصرة قد تعرض لهجوم من شيخ مسجدنا في خطبة (جمعة) قبل شهرين. اتهمه الشيخ بأنه يتشبه بالنساء بارتدائه ملابس النساء، والرقص في الأعراس مثل النساء، والغناء الفاحش الذي يشاركه فيه (الزقرت) الزنديق – هكذا وصفه الشيخ، وهو يلهث، ماسحاً عرقاً غزيراً تفصد من وجهه السمين المحمر – وهما معاً كما وصفهما الشيخ ينشران الفجور والفسق بين الناس في المخيم، وبسببهما وبسبب أمثالهما لم نعد حتى الآن إلى وطننا، وانتصر علينا (اليهود).

رصدنا الشيخ يوم الجمعة، وهو يغادر بوابة بيته القريب من المسجد. رأيناه يخرج بقمبازه النظيف المخطط بالأبيض والأسود، ورأسه يختفي تحت عمامته الثقيلة، وهو يهيئ منديلاً أبيض في يده ليمسح به عرقه، خاصة وشمس هذا اليوم حارّة، وقد أخذ يمشي متثاقلاً بجسده السمين الربعة. نظر إلينا بشيء من الريبة عندما طرحنا عليه السلام بخشوع مفتعل.

راقبناه وهو يعبر الإسفلت، ويدخل مخفر الشرطة. تسللنا خلف المخفر في دغل (البوص) واسترقنا النظر، فرأينا رئيس المخفر يناول شيخ مسجدنا أوراقاً ليسارع الشيخ في دسها في عبه. تابعناه وهو يغادر المخفر، ويعود ليقطع الإسفلت، ويتوقف مجيلاً النظر حواليه. كنا ثلاثة، انتدبنا أنفسنا لمهمتنا تلك، بتحريض من (أبو نصرة) ومن صديقه (الزقرت) الطبّال الذي يرقّص الحجر كما يصفه (أبو نصرة)، والذي يغني بصوت حاد جميل: يا شادي الألحان، بينما (أبو نصرة) يتلوى في فستان نسائي لا

ترتدي مثله نساء مخيمنا، لا الأمهات ولا الصبايا الصغيرات، لأنهن جميعاً يرتدين الأثواب، أو ملابس المدرسة، وقد كان حصل على الفستان من (بقجة) من تلك التي وزعتها وكالة الغوث على اللاجئين، نافخاً صدره بثديين من أقمشة يكعبلها ليبدو مغريين، وكل هذا مقابل عشرة قروش أو عشرين قرشاً من أصحاب العرس الذي ينشر الفرح في لياليه الثلاث الصديقان المتلازمان ليلاً نهاراً (أبو نصرة) و(الزقرت)، واللذان لا يعملان شيئاً سوى الغناء والرقص في الأعراس، ولعب الورق في مقهى (خميس).

شجعنا أنا ومحمد صاحبنا فوزي أن يذهب إلى المسجد، وأن يخبر المصلين بصوت عال أن الشيخ تسلّم من رئيس المفخر أوراقاً دسّها في عبه، وأنها مثل الأوراق التي يقرأ منها خطبة (الجمعة).

***

ارتاب الشيخ في مراقبتنا له. توقف، وأشار لنا أن نقترب منه. اقتربنا، توجه لي بالسؤال:

– ألست ابن الشيوعي (أبو رشاد)؟.

لم أجبه.

سأل محمداً ابن الأستاذ عطية:

– وأنت، ابن من؟.

أجابه محمد:

– أنا ابن الأستاذ عطيه الشمالي.

- ها، أنت أبوك بعثي!.

ثمّ وهو ينقّل نظراته المستريبة على وجهينا:

- من أرسلكم يا شاطرين للتجسس علي، ها؟.

مسح الشيخ عرقه ونفخ مرتين، وردّد بصوت مسموع:

- كفّار أبناء كفّار...

ثم أخذ يدفع بجسده الثقيل متجهاً إلى المسجد، في حين أخذ (أبو نعمان) في رفع أذان الظهر، منغماً صوته الجميل العالي، مديراً وجهه في الجهات الأربع، واضعاً راحته اليمنى على أذنه، مميلاً رأسه على راحة يده.

سمعنا صوتاً داخل المسجد، فركضنا لنرى ما يحدث، وإذا بالشيخ يصرخ:

- وما شأنكم أن تعرفوا من يكتب لي (الخطبة)، المهم أنها تحض على، على...!.

بينما كان عدد من المصلين يتحلقون حول الشيخ، وهم يلحون عليه بالسؤال:

- يا شيخ: قل لنا لماذا تتردّد يوم الجمعة على المخفر قبل الصلاة، وبعد الصلاة؟. يجب أن نعرف يا يخ، فنحن نصلي وراءك، وأنت إمامنا، ومنا فينا؟.

أجاب بعد تردد ويأس، وهو يمسح عرقاً غزيراً يسيل من وجهه، منكساً رأسه على صدره:

– أنا أذهب للمخفر لتسلم (خطبة) الجمعة من رئيس المخفر، ها، هل ارتحتم؟.

عادت الأصوات تسأل:

– ولماذا تعود إلى المخفر بعد الصلاة؟.

زفر مجهداً:

– لأعيد (الخطبة) لرئيس المخفر، هل ارتحتم؟.

– يا شيخنا، نريدك أن ترتجل (خطبة) عن أحوالنا. أن تنصحنا ماذا نفعل. خطبة من قلبك، وعقلك، ودينك، يلا يا شيخ، يلا يا مولانا. نحن لا نريد خطبة عن طاعة أولي الأمر، وعن نواقض الوضوء، فخطبة الجمعة في من هم مثلنا ينبغي أن تكون مختلفة، أليس كذلك يا مولانا؟.

كان هذا صوت الأستاذ عطية.

صعد الشيخ الدرجات الثلاث، والتي كانت تنتهي ببسطة تكفي للوقوف عليها، أو الجلوس إذا ما عجز الشيخ عن الوقوف، ثمّ تأمل المصلين، وفتح فمه، وحاول قول شيء لكنه أصيب بالعي التام، فأحنى رأسه وانفجر في بكاء متصل، واختلط عرق وجهه بدموع عينيه.

أخرج الشيخ أوراقاً مطويةً من عبّه، ثم أخذ يمزقها وهو ينهنه.

جلس المصلون ساكتين، بانتظار أن يتوقف الشيخ عن البكاء. كانوا ينظرون إليه بود وحزن، بينما هو يمسح دموعه ويمر بنظراته فوق رؤوسهم.

وقف الأستاذ عطية والد صديقي محمد، الذي يعلمنا الجغرافيا والتاريخ، نحن تلاميذ شعب الأول إعدادي الثلاث، وهو يفرك يديه، معلقاً:

– هذه أبلغ خطبة جمعه سمعناها، أليس كذلك يا أهل مخيمنا؟..

ملحوظة: لا يخفى على القارئ ـ والقارئة ـ أن رشاداً الذي في هذه القصة هو أنا، أي كاتبها، الذي كبر فيما بعد، وعاش، وتنقل في بلاد الله الواسعة، الضيقة على الفلسطينيين، أمّا ماذا تقول هذه القصة، فلكل قارئ وقارئة فهمها كما يشاء، أو كما تصله، ولكل منهم أن يذهب (بقولها) بعيداً، وعميقاً...

ملحوظة ثانية: اهدي هذه القصة لقريبي الذي عاد من المسجد قبل أيام وهو يرتجف غضباً من خطيب الجمعة وخطبته التي دعت لإطاعة أولي الأمر، وتوقفت مطولاً عند نواقض الوضوء، هذا في الوقت الذي تحصد فيه الطائرات، والصواريخ (الإسرائيلية) أهلنا في فلسطين، وتدّمر البيوت على رؤوسهم، وأهديها إلى الصديق العزيز الكاتب فاروق وادي...

نصف رغيف ناشف

إلى ذكرى الصديق الشاعر فوّاز عيد

هـذه القصـة التـي أثـارت فضـولنا وأضـحكتنا سـخريّةً فـي البدايـة، وأدهشـتنا فيمـا بعـد، يكتبهـا لكـم نيابـةً عنّـا، أو باسـمنا كمـا يقـال، زميلنـا حمـدي، الـذي نلقّبـه بالصـوص لضـآلة حجمـه، ولأنـه دائـب الحركـة، والنطنطة، ومحب للمزاح جداً، وأبرع مخترع للمقالب، وهي للحق مقالب غير مؤذية، وهو إلى كل ما تقدم أشطر واحد في صفّنا الأول ثانوي شعبة أ فـي تـدبيج مواضـيه الإنشـاء، والشـعبة الثانيـة، الأول ثـانوي ب، أو صـف التيوس كما نصفه تشنيعاً على زملائنا.

هذه المقدمة التوضيحية كان لا بدّ منها، والآن إلى قصة ذلك الفتى الأسـمر، الغـامق السـمرة، النحيـل، الـذي لـم نعرفـه مـن قبـل، والـذي جاءنـا ليزاملنـا فـي الصـف هـذا العـام. اسـمه فـوزي، وشـكله بـدوي. يبـدو مرتفعـاً، ونفوراً، أو في حاله كما يقال عن أمثاله. وهـو شـاطر فـي اللغـة الإنكليزيـة، وفـي كـل الـدروس، وهـذا مـا نقـرّ بـه بغـيظ لا نخفيـه. وهـو متفاعـل مـع المدرسـين أثنـاء الحصـص، ولكنـه لا يقـيم معنـا علاقـة، ولا مـع غيرنـا مـن الشلل في الصف بشعبتيه، وفي المدرسة عموماً.

حاولنـا اسـتدراجه للتحـدث معـه، ولكنـه كـان يـرد علـى أسـئلتنا باقتضـاب، وعلـى تحياتنـا بـأدب، ولكـن بـدون حماسـة، موصـداً البـاب فـي وجه أي حوار، أو طالب صداقة.

اعتدنا أن نحضر معنا (ساندويشات) وعصائر، وبعض الفاكهة، وأن نأكلها معاً، نحن الشلة التي باتت تعرف بشلّة الصوص. نسبة لي أنا كاتب هذه القصة نيابة عن الشلّة . ولقد عرضنا على ذلك الفتى الغامض أن يشاركنا طعامنا، ولكنه رفض بشدةّ، وكان ينأى بنفسه بعيداً عن الطلبة جميعاً أثناء الفرص بين الحصص، ويخرج من شنطته رغيفاً ملفوفاً بالورق، ثمّ يقوّس جسده، بحيث يبدو وكأنه أحدب عندما يمشي متمهلاً، وقد أدار ظهره، وكأنه يخشى أن يسيل شيء من طعامه على ملابسه.

أثار فضولنا بسلوكه اليومي هذا، فبتنا نتراهن أنه يأكل لحماً، وكبدة مقلية، وأشياء دسمة، وأنه حريص على أن لا يجرح مشاعرنا بكشف طعامه الذي سيسيل لعابنا لو رأيناه، خاصةً ونحن من أسر متوسطة الحال، أو أقرب إلى الفقر.

الفضول هو ما دفع الصوص . يعني أنا، كاتب القصة، أو الحكاية هذه. إلى اقتراح فتح شنطة زميلنا فوزي، وهذا هو اسمه الأول. نحن، كل الشلّة حريصون على عدم ذكر اسم عائلته لأننا لا نريد التشهير بزميل لم يسئ لنا، وهذا ما نقرّ به، لاكتشاف ما يضعه صاحبنا في رغيفه، أو شطيرته، أو سندويشته.

ما أن خرج صاحبنا للكتابة على اللوح، وكان بارعاً في الإعراب أيضاً . ألحق أنه كان أشطرنا. حتى فتح الصوص الشنطة، وسحب منها اللفافة، وخبّأها في شنطة.

انتظرنا الفرصة، وتريثنا عندما قرع جرس الاستراحة الثانية، تلك الاستراحة التي اعتدنا أن نتناول أثناءها ما تيسر لنا. فتح الصوص شنطته، وفكّ اللفافة، فإذا برغيف يابس، صغير ولا شيء في داخله!.

ـ رغيف ناشف!.. ودائماً!.. لماذا يفعل ذلك؟!.

هكذا تدافعت تعليقات الشلّة، مع تعبيرات الدهشة على الوجوه. إذاً فهذا هو طعامه اليومي، وهو يمثّل علينا أن فيه (دسماً) يخشى أن يسيل على ملابسه!، ملابسه التي تبدو نظيفة عادة، ولكنه تقريباً لا يغيرها، وبخاصة الجاكيت!.

رأيناه يفتح شنطته، ثمّ تربد ملامحه، وهو يجيل نظراته الغاضبة حواليه، متفحصاً الوجوه، متسائلاً عمّن فعلها، دون أن ينطق بكلمة. مشى متمهلاً، بين الطلاب، عندئذ اقترب منه صاحبنا الصوص – الحق إنني خفت من لحظتها، وخجلت وهو يحدّق في عيني بغضب خشيت أن يتحوّل إلى شجار – فأخرجت اللفافة، ومدّدت يدي بها، مبدياً أسفي، موضحاً له أننا كنّا نمزح معه، ولم نقصد الإساءة.

أمرني أن أفتح اللفافة، ففعلت. نظر إلى الرغيف اليابس، وأخرج من أنفه نفساً مسموعاً، فيه سخرية ترافقت مع هزّة من كتفه، وجسده المائل قليلاً، ثمّ بكل هدوء وجه كلامه للشلّة جميعاً:

ـ ما فعلتموه عيب، فأنتم فضوليون، ولصوص أيضاً، ثمّ إنكم تستبدلون شطيرتي بهذا الرغيف الناشف كعقولكم.

انفجرنا ضاحكين للحظات قليلة، فزجرنا بنظراته الصارمة، مما دفعنا للكفّ عن الضحك.

في اليوم التالي، عندما دقّ جرس الاستراحة، سارعنا لمراقبة ما سيفعل، فإذا به يخرج لفافة من شنطته ثمّ يبتعد عنّا، محدّباً جسده، ويأخذ في قضم ما في اللفافة بشهية، ماسحاً فمه بين الفينة والأخرى بمنديل قماشي وكأنه يزيل دسماً، متجاهلاً نظراتنا الفضولية!.

رقصة ليلة الوداع

كانت تنام في سريري،

والصباح منسكب كأنه وشاح

من رأسها لردفها

وقطرة من مطر الخريف

ترقد في ظلال جفنها

والنفس المستعجل الحفيف

يشهق في حلمتها

وقفت قربها، أحسّها، أرقبها، أشمها

النبض نبض وثني

والروح روح صوفي سليب البدن

أقول، يا نفسي، رآك الله عطشى حين بلّ غربتك

جائعةً فقوّتك

تائهةً فمدّ خيط نجمة يضيء لك

(صلاح عبد الصبور)

حلقت، وتعطرّت، وارتديت بدلةً أعددتها للسفر، إلى هناك، إلى بيروت، ولذا فاجأت نفسي وأنا أردّد كلمة (السفر)، وليس (العودة)، ثمّ لم أفاجأ وأنا أتأمل الأمر، فأنا لست عائداً، ولكنني على سفر!.. كأن الريح تحتي.. أليس هذا صدر بيت من قصيدة المتنبي؟ لا، بل هو:

على قلق كأن الريح تحتي

ولكنني لا أسيّر ريح القلق التي تدوّخني، وتتلاطم من تحتي، وفوقي أمامي، وورائي، وما عندي غير العناد أكبح جماحها به، ولا عقلانيتها التي تشرّدني في بلاد الله، فتجعلني مسافراً إيابه بعيد.

لماذا أفسد على نفسي شمس هذا اليوم الخريفي الأنيق الجمال، بلذعة نسماته الباردة، وبالدفء الذي يلطّف من غلواء برودتها المشبعة بصقيع ثلوج تحيط بموسكو، وتغرق غاباتها بلونها الأبيض، داعيةً العشاق إلى الخروج من حياتهم التي حاصرهم بها شتاء ثقيل عنيد.

أهبط من سيارة التاكسي. أنا أرفّه نفسي اليوم، فغداً في الفجر أسافر، ولذا أنفح السائق زيادةً على ما طلب، وأبدأ جولتي في الساحة الحمراء، ثمّ أمضي باتجاه سوق (القوم)، وأتوقف قبالة ضريح لينين متأملاً بعض الزوار الذين يفدون لتأمل قائد الثورة ا لمحنط، حيث يهبطون الدرجات بسكون وخشوع يفرضه جو المكان، والنظرات الصارمة لحرّاس الضريح.

الأسوار الحمراء للكرملين، وقباب الكنائس، والأبواب التي يعبرها الهابطون إلى الميترو، كلها تأملتها مئات المرّات، وعبرتها، وتنقّلت في

المترو وأنا أنقّل نظراتي على وجوه الموسكوفيين رجالاً ونساءً، وهم يفتحون كتباً يقرؤون صفحاتها بعيون أذبلها السهر في نوبات العمل، مترنحين مع حركة الميترو، مسرعين للهبوط للدخول قبل أن تغلق العربات أبوابها بين محطة وأخرى.

من وراء فندق (موسكوفا) أتوجه إلى مسرح البولشوي، أتأمله، أستعيد في ذاكرتي أعمال البالية التي استمتعت بها، ورقصات (فراشات) البالية، أولئك اللواتي يطرن على رؤوس أصابعهن . ألهن أصابع؟ . بألبستهن البيضاء كما لو أنهن حمامات بيضاء. أيتزوجن، ويحبلن، ويلدن؟!.

أعود صوب الساحة الحمراء، وأقترح على نفسي التسكع أمام فندق (موسكوفا)، الذي طالما سهرت فيه مع أعضاء الوفود الفلسطينية التي تأتي لزيارة موسكو، لحاجتهم لي للترجمة.

الملعون حسام الآن مع أولغا في لينغراد يتنعّم في ضيافة أسرتها التي تحبّه، وتحبذ زواج ابنتهم منه، رغم علمهم أنه لا يملك مكاناً يعود إليه!.

يا ملعون!.. تتركني وتتوجه إلى لينغراد مع أولغا، ولا تنتظر ثلاثة أيام حتى أسافر؟. لست أستغيبك، ولكنني مشتاق لك، سأشتاق لك، فأنت ستبقى هنا سنة أخرى إلى أن تحصل على الدكتوراه في اللغات:

روسي، فرنسي، إنكليزي.. ثمّ اللغة الألمانية التي أضفتها باختيارك لتتقنها!. تقول: اللغات هي المفتاح للدخول في العالم!. ولكنه لن يجد الباب الذي كان له ذات زمن يا صاح!. تقول: سأبني بيتاً، واجعل له أبواباً يفتحها مفتاح أمي، ولكن لا بد من اللغات!. يا حسرتي على هذه اللغات

التي ستنتهي بك مترجماً في أحسن الأحوال، أو أستاذاً في جامعة ما، هذا إن قبلوا توظيفك أنت الفلسطيني المتخرّج من الاتحاد السوفييتي!.

رآها تنبثق من خلف الفندق، فقدّر أنها جاءت من النفق الذي يسلكه المشاة للانتقال إلى الطرف الآخر من الشارع، حيث يقصدون محطة المترو، أو ضريح لينين، أو سوق (القوم).

صغيرة، ملمومة، لوت معصمها ونظرت إلى ساعتها، ثمّ هدّأت من سرعتها، وبدت كأنها تلتقط أنفاسها، وسارت متمهلة، مجيلة نظراتها صوب السيارات العابرة للساحة الحمراء التي تنتهي إليها عدّة شوارع. حاذيتها حتى كدت ألمس كتفها بذراعي، وعند زاوية الفندق استدرت وعدت متمهلاً على الرصيف، إذ صارت قبالتي تأملت قدميها فعرفت أنها منهن.. راقصة بالية!.. فهي تمشي رشيقة على لساني قدميها الصغيرين، في حذائيها الناعمين.

رفعت رأسي لأرى وجهها!. وجه طفولي، وشعر معقوص إلى الوراء. الوجه جميل بلا أصباغ، مشع بفرح سرّي يفيض من الوجه. الأنف محمر قليلاً من لسعات البرد. هيّئ لي أنني رأيت صفحتي عنقها النحيل، وأذنيها الصغيرتين.

هاهي تنظر إلى ساعتها بتوتر. إنها تنفخ بغضب، وهذا يدل على أن صبرها قد بدأ ينفد.

حاذيتها:

– هو لن يأتي!...

ثمّ أضفت:

– هو لا يستحق هذه اليمامة...

ثمّ قلت:

– لو أن بوشكين رآك لكتب أجمل أشعار الغزل، أمّا ليرمنتوف فهو حزين الآن في قبره لأنه لم يظفر بنظرة منك قبل أن يقتل في تلك المبارزة الغادرة!.

تنهدت وبحسرة قلت:

– أمّا أنا فلا أجد لغة أكتب لك بها، مع أن أجدادي كتبوا أحلى أشعار الحب والغزل. لغتي الآن هي آه طويلة، وابتهالات بأن لا يأتي ذلك الشخص الذي لا يستحقك، كي ألتقيك ولا تكون حياتي كلّها غربة وحزن.

ابتسمت، وسألتني بسخرية:

– وما أدراك أنني أنتظر رجلاً وليس امرأة؟!.

– هذه اللهفة من امرأة لا تكون إلاّ لهفة امرأة تنتظر رجلاً. ولكن.. أيستحق اللهفة من يتشاغل، أو يهمل، أو يغرق في النوم في حين تنتظره هذه اليمامة؟!.

قالت بعناد، ونحن نتمشى متمهلين وهي ترسل نظراتها آملةً أن يأتي من تنتظره:

– سيأتي!.

أمّا أنا فصمت. لم أشأ أن أبدو وغداً يقتنص الفرصة، وأخذت أمنّي النفس، بل وأبتهل إلى الله أن لا يأتي ذلك الشخص. الذي طال تأخره.

سألتني حين صرنا بمحاذاة مدخل فندق موسكوفا:

– أنت من أين؟ لست روسياً!.

– أنا من حيث يوجد معي مفتاح، ولم يعد لي بيت!.

– هذه أحجية شرقية!.

– حلّها لا يكون بكلمات قليلة على الرصيف!.

– فكيف يكون؟!.

– بمغادرة الرصيف إلى عشق يليق باليمامة ..

– ها، أنت إذن صيّاد! وهذا يجعلني لا آمن لك.

– بل أنا عش..

ووضعت يدي على صدري، فوق القلب، فضحكت ضحكةً مهموسةً، وهزّت رأسها كأنها تقول: لا أصدّقك، سمعت من هذا الكلام كثيراً...

وعادت للتمشي على الرصيف بلا حماسة، صارت ذابلة، وبدا على وجهها الملل والأسف.

قلت لها:

– أنت راقصة بالية، صح؟.

ابتسمت وسألتنني:

– كيف عرفت؟.

– من حركة جسدك، ومشيتك، فأنت حتى في الشارع تمشين على رؤوس أصابعك.

– إذن فأنت تشاهد عروض البالية؟.

– كثيراً..

وأشرت لها باتجاه (البولشوي):

– وبلغ بي الأمر أن أسافر إلى لينتغراد لأستمتع بعروض تقدّم هناك. لكنني ألتقي لأول مرّة براقصة بالية، وأتحدّث معها، وربّما، أقول ربّما أشاهد عرضاً خاصاً، أقصد رقصة من ملاك لرجل واحد وحيد، ما كان يحلم بمثل هذه المصادفة، وفي يوم كهذا.

ابتسمت، ثمّ نظرت إلى ساعتها، وسألتني:

– أتسكن وحدك؟.

– نعم، أنا وحدي...

– اسمع، هناك شيء ما يغريني بالذهاب معك، ليس انتقاماً منه، ولا لأنني أفعل هذا الأمر، أو فعلته من قبل، بل لأن شيئاً ما يقول لي اذهبي معه. ولكن، من أنت؟.

طويت يدها الصغيرة في يدي فلم تمانع:

– أنا جدي بوشكين، هل قرأت له؟.

– أحب أشعاره كثيراً..

– شعره أجعد كشعري، وعيناه بنيّتان، وهو من جد كان عبداً، وقد ترك لي قصيدةً تقول: اذهب إلى موسكو والتق بها، فإن لم تفعل فكأنك لم تعش..

ضحكت، وقالت:

– سأذهب معك، رغم أن بوشكين ليس جدّك..

أوقفت سيّارة تاكسي، وأعطيت السائق العنوان، وظللنا ساكتين طيلة الطريق، يدها في يدي، وعينانا تلتقيان يبن حين وآخر، والسائق يتمتم بأغنية لا أتلقط مفرداتها، في حين تمتلئ شوارع موسكو بالشمس.

***

حين صرنا داخل الشقّة، وقفت، وأجالت بصرها في الصالون، متأملةً اللوحات والصور المعلّقة على الجدران.

أخذت في تقليب الكتب، حتى التقطت كتاباً يضم مختارات شعرية روسية، فقلّبت الصفحات، وبدأت شفتاها تتمتمان. شفتان!.. فم عصفوري.. ماذا تقرأ؟ ..من من الشعراء الروس يستهويها؟.

ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت كوبين ونبيذاً، ثمّ أحضرت فاكهةً، ولبثت أتأمل استغراقها، وتفاصيل جسدها بعد أن خلعت جاكتتها، فبدا جسمها طفلياً.

أطبقت صفحات الكتاب وتأملتني وأنا أصب النبيذ في الكأسين.

تناولت الكأس برشاقة ورفعته وتمتم فمها اللطيف، ورمشت عيناها رمشات جعلت خفقات قلبي تضطّرب، وعلى وجهها فاضت ابتسامة فيها دهشة ومرح، ورنّ الكأسان وهما يتلامسان..

ظلّت واقفة إلى أن فرغت من شرب كأسها، ووضعته على الطاولة، ثمّ تصفّحت أسماء الأشرطة، واختارت شريطاً ألقمته في المسجّلة، ونضت عنها قميصها، وبنطالها، وظلّت بلباس داخلي يلتصق بجسدها، هو لباس راقصات البالية، ومع الموسيقى فردت الفراشة جناحيها، وأرسلت يديها مع نسمات لا ترى، وإن كانت ترى حركتها في تموّجات اليدين، الأصابع، الراحتين، الذراعين..

انتشى الجسد بالموسيقى، وتنقّل في المساحة الضيقة فجعلها فسيحة، وأنا محتار أأغمض عينيّ أم أفتحهما على سعتهما، فهذه النعمة الطارئة لن تدوم، وهذا الجمال، وهذه الموسيقى توجعني، تجعلني شفّافاً، حتى لكأنني أرق من جناحي فراشة، ووجدتني أبكي بصمت، وذهول، وأنا في حالة وجد ونشوة واتحاد..

***

حملتها بين ذراعي، وأرحتها على السرير، وغطّيتها لتستدفئ، ونمنا متعانقين..

فتحت عيني، وكم وددت لو أنني لم أفعل، لو أن الحياة تمضي هكذا، ولكنني كنت قد طلبت من (بافل) سائق سيّارة التاكسي الذي عرفته منذ سنوات أن يوافيني في الرابعة صباحاً لينقلني إلى مطار موسكو..

بهدوء انسللت من الفراش، غسلت وجهي، وارتديت ملابسي، وأخذت في إخراج الحقائب الثلاث ووضعتها أمام المصعد.

وقفت أتأملها، بينما الفجر يشقشق مرسلاً ضوءه عبر الزجاج والستارة، في حين تلتم هي تحت اللحاف، وعيناها مطبقتان، وتنفسها لطيف.

كتبت لها اسمي كاملاً، وعنواني، وهاتفي في بيروت. هي تعرف أنني سأسافر مبكّراً، ولذا ألحت علي أن أوقظها لتودّعني، ولكنني لم أفعل، و..تفطنت إلى أنني لم أسألها عن اسمها. و..على رؤوس أصابعي تراجعت صوب باب الشقّة، ولكنني لم أبعد عيني عن السرير الغارق في النور، والغطاء الذي يلف جسداً هادئ الحركة..

طبقت الباب بأقل ما يمكن من الجلبة، وتنفّست طويلاً وأنا أقف أمام المصعد منتظراً صعوده، ثمّ وجدتني أتأمل وجهي في مرآته، ودمعات تغشي عيني فتغيم ملامحي، وأشعر بدوار وأنفض رأسي، وأهمّ أن أفتح باب الشقّة لأتأكد إن كانت ثمّة في الداخل امرأة تنام في سرير، ولكنّ المصعد يصل، فأفتح الباب وأكوّم الحقائب، وأهبط، ثمّ أخرج وحيداً، وحيداً تماماً في فجر رمادي مشبع بالبرودة..

الفهرس